حسن كمال

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

الذين لبسوا البالطو الأبيض

Scanned by
Jamal Hatmal

1 8 JUIN 2016

Bibliothèque - Discothèque
COURONNES
68, Rue des Couronnes
75020 PARIS
Tél. 01 40 33 60 01 Fax 01 47 07 16 94

الذين لبسوا البالطو الأبيض

الذين لبسوا البالطو الأبيض

حسن كمال

تصميم الغلاف: هاني صالح

الطبعة الأولى ٢٠١٦

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تلفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٥٢٠٠/ ٢٠١٥
ISBN 978-977-09-3374-9

حسن كمال

الذين لبسوا البالطو الأبيض

Bibliothèque - Discothèque
COURONNES
66, Rue des ...
75020 PARIS
Tél. 01 48 83 26 81 Fax ...

دار الشروق

المحتويات

رسالة ٧

الكابوس ١٥

خمسة عين ٢٢

الأسطورة ٢٩

الماء والنور ٣٥

صراع البتوع ٤٢

الفضيحة ٥٠

ولادة قيصرية ٥٩

القادمون من الخلف ٦٥

السَّلَطَة ٧٣

الخبيث والحميد ٨٠

قدس الأقداس ٨٦

الأُسَر ٩٤
كشف جماعي..... ١٠٠
العصابة ١٠٦
حوض السمك..... ١١٥
السنة الكبيسة..... ١٢٢
الإشاعات..... ١٢٨
المرافقون ١٣٦
الزواج ١٤٥
صاحب الكرامات..... ١٥٢
المعادلة..... ١٥٦
المهزلة..... ١٦٨
المندوب..... ١٧٦
البداية..... ١٨٥
نهايته..... ١٩١

رسالة

السيد المحترم الدكتور/ حسن كمال، أنا عشمان الطيب دفعتك، لو فاكرني يبقى خير وبركة.. ولو مش فاكرني مش مهم.. المهم إنك تساعدني على نشر الكلام ده. اعتبره رواية ساخرة أو قصة حقيقية حتى لو كان مختلف عن اللي أنت بتقدمه للناس.

أنا خلاص باعتزل الطب، ومكنتش ناوي أكتب مذكراتي (رغم إن الكتابة اليومين دول بقت موضة).. بس النهاردة كنت قاعد على قهوة في ميدان الجيزة، باشرب كوباية شاي كشري تقيل سكر زيادة وحجرين معسل اتعلمت أضربهم في سنة الامتياز، اللي اتعلمت فيها كل خير. يا دوب خدت نفسين لقيتلك تلفزيون القهوة بيعرض مسلسل، مش فاكر اسمه دلوقتِ، المهم إنه عن عالم المستشفيات والأطباء والمرضى في مصر، الحقيقة إنه عجبني قوي في البداية. الحلقة لطيفة والممثلين «دمهم شربات»، والخلطة عبقرية ما بين الكوميديا الخضراء (أصل كل حاجة في المستشفى اللي في المسلسل كان لونها أخضر) والخيال العلمي (أجهزة بتزمر وبتنور ولا توكيل بي إم)،

والرومانسية الطافحة بين الممرضة، اللي اختارت التمريض لأنه أهم من العلوم السياسية رغم أن العائلة بالكامل شغالة في السلك الدبلوماسي؛ وبين الطبيب الصغير اللي اتخرج في أول الحلقة وأصبح ملك جراحات المخ المفتوح على الدقيقة ١٥!

ما علينا، أنا كنت باشرب الشاي وأضحك باستمتاع على كل مشهد لغاية ما لقيت شوية شباب طايش قاعد ورايا، شكلهم كده ثانوية عامة، سألني واحد منهم:

ـ حضرتك بتضحك على إيه؟

ـ إيه الغريب؟ مسلسل كوميدي وأنا باضحك، أنا حر يا أخي.

ـ المسلسل مش كوميدي خالص حضرتك.

ـ إحـــم! إنت بتتكلم جد؟

ـ أيوه طبعا، وسيبنا بقى نتفرج علشان إحنا ناويين ندخل كلية الطب والمسلسل ده بيفهمنا حاجات كتير.

ـ يا بني، إنت مش فاهم أي حاجة، اسمعني.

حاولت أتكلم معاهم بس ماحدش سمعني، صاحب القهوة تجنبا لوجع الدماغ غير المحطة، طلع لنا واحد ملزق شعره بالفازلين اللميع، الراجل أول ما شافه فرح قوى وقال:

– باااس.. بلا مسلسلات بلا كلام فاضي، خلونا نسمع الطب اللي بجد.. قول يا دكتور!

لقيتلك الأخ اللي في التلفزيون بيتكلم عن علاج قرحة المعدة بخلاصة مرارة السمك النيء، والناس قاعدة متنحة وواحد بيقول للي جنبه:

- الراجل ده أحسن دكتور في مصر.

حاولت أقولهم إنه مش دكتور، وإن فيه بحث بيقول إن مرارة السمك بتعمل فشل كلوي حاد.. ردوا عليَّ كلهم في نَفَس واحد:

- أنت كداب.

وبناء عليه حسمت قراري باعتزال الطب، وقررت أبعتلك الكتاب ده، ضبطه زي ما أنت عاوز وحط اسمك عليه، ما تفرقش معايا، بس لازم تنشره.. علشان اللي داخل مايتفاجئش.

والسلام

عشمان

إلـــى اللـــي جـــرَّب وعـــارف..

واللي ما جرَّبش وعاوز يعرف

هذا الكتاب «بالتأكيد» من محض الخيال، وأي كائن بشري يعيش في أي مكان على وجه الأرض لا يمكن أن يصدق أن المكتوب هنا يمكن أن يحدث لبشر، فما بالك بما يحدث من وفي الأطباء؟ عارف يعني إيه أطباء؟

بالبلدي كده يعني دكاترة، يعني كليات القمة، يعني حلم بابا وماما، يعني اللي ما دخلش طب وهندسة ف مصر ما دخلش جامعة، يعني ملايكة الرحمة، يعني الباشا والبالطو والعيادة والمستشفى، يعني دُقي يا مزيكا «حزايني» وسمعني أغنية الصِّيت ولا الغِنى!

الكابوس

عارف «كاندي كراش»؟ تلك اللعبة التي لا تنتهي، من مستوى لآخر، ومن سهل لصعب لأصعب، هل شعرت يوما أنك «مسحول وراها»؟ اكتشفت أنا بعد أن وصلت للمستوى ٨١٤ أن «كاندي» الخائنة هي التي كانت تلعب بي ولست أنا الذي ألعب بها. أنام على «كاندي» وأستيقظ على «كاندي» وأسأل الزملاء والمرضى عن «كاندي»، أنت وصلت لمستوى كام؟ والإجابة دائما تتبعها سخرية من طرف آخر لأنه وصل لمستوى أعلى بكتير. كل يوم أقرر ألا ألعبها مرة أخرى فأفشل لأن هيَّ التي تلعب! الطب أيضا يلعب. مستويات مستويات مستويات، ضع أنت كلمة يلعب وبعدها ما تختاره من حروف الجر المناسبة لأخلاقك وتجربتك، ومن حروف الجر (للتذكرة): «مع، في، على، بـ»، ومثل «كاندي» تماما «الطب هيجيب آخرك قبل ما تجيب آخره»!

لذلك لا يمكن لكائن بشري طبيعي إحصاء المدة التي مرت

عليه في دراسة الطب ولا عدد الامتحانات التي دخلها. «عَلْقَة طوييييلة» لا تنسى ولا تفوت، لكن لا تقلق (مش كله ضرب ضرب، فيه تهزيق كتيير وشتيمة من آن لآخر)، أنا مثلا أكتب هذا الكلام وأنا حاصل على البكالوريوس بدرجة ممتاز «بالعافية» من جامعة «هيرو» المصرية بعد ست سنوات من الطحن المتواصل.

«ملحوظة: أحيط سيادتكم علما بأن السنة الدراسية الأخيرة فقط ستة عشر شهرا، وهي تقريبا نفس فترة حمل السيد قشطة ربنا ينتعه وينتع كل طلبة بكالوريوس الطب بالسلامة».

تدهور نظري خلال تلك الفترة من ستة على تسعة إلى ستة على ستمائة، وأصبت بفراغ مزمن في رأسي مشهور في اللغة العربية باسم الثعلبة، شرح لي أستاذ الجلدية الذي كان يعالجني أنها ناتجة من الضغط العصبي، وأن حلها الوحيد أن أهدئ أعصابي وأريح نفسيتي وأكبر دماغي! لم أحاول أن أناقشه كثيرا، لا سيما بعد أن وجدت فروة رأسه أمامي أنصع بياضا من رخام المستشفيات الاستثمارية. الحمد لله اختفت الآن هذه البقعة التي كنت أخفيها طيلة سنوات الكلية بالكاب (على أساس أني روش)، ليس لأن العلاج نجح، بل لأن رأسي أصبح هو الآخر يلمع مثل رخام المستشفيات الاستثمارية.

بمناسبة المستشفيات. أول مرة دخلت فيها الكلية كانت بمجرد أن عرفت نتيجة التنسيق. قررت أن يكون المستشفى هو أول جزء من الكلية أزوره، والسبب أنني كنت «مستعجل» على

دخول المستشفى طبيبا، أستمتع بنظرة الاحترام في عيون المرضى والتي كنت دائما ما أراها في عيون أبي عندما يرى طبيبا. قبل الباب بعدة أمتار فردت قامتي قليلا ومشيت بسرعة (عادة أرى الأطباء يدخلون المستشفيات والعيادات وهم يمشون بسرعة).

تجاهلت موظف الأمن العجوز، لكنه أوقفني بصوت أجش:

ـ على فين يا أستاذ؟

أجبته بابتسامة واسعة:

ـ أنا دكتور.

نظر إليَّ بتفحص من تحت النظارة لبضع ثوانٍ، ثم قال مبتسما بسخرية:

ـ لأ، إنت مش دكتور، إنت طالب، وطالب في سنة أولى جديد، يعني لسة ما دخلتش الكلية.

حملقت فيه مندهشا، فقد كان شكلي يبدو أكبر من عمري. سألته:

ـ وعرفت منين؟

ابتسم ساخرا:

ـ يا ابني أنا خبرة تلاتين سنة، أعرف كل واحد من شكله، عرفتك من شعرك، وعينيك، ومشيتك.

نظرت إليه في استفسار، أخذني من يدي إلى سيارة مركونة أمام المستشفى، مال إلى مرآة الجانب وقال لي:

- بص، شعرك متسرح ومظبوط بالمسطرة، لما تدخل بالسلامة بعد كام شهر هتلاقيه طويل ومتنعكش، آخرك تلزقه بشوية مية ولّا شوية كِريم. ثانيا عينيك، عينيك لسة بيضة، بكرة تحمر وتبقى زي كاسات الدم وتحتيها لازم يسود. وبعدين مشيتك سريعة ونشيطة، الطلبة القدام بيدخلوا وهمَّ بيقدموا رجل ويأخروا رجل، فهمت بقى؟

هززت رأسي في شك، تابع هو:

- البنات بقى أسهل بكتير، أصل الدَّهْوَلة بتبان عليهم بسرعة، لسة عاوز تدخل؟

هززت رأسي مرة أخرى وأنا أبتسم في بلاهة، فصاح في غضب:

- طب خش يا أخويا، بس خش بضهرك!

مشيت نحو المدخل بسرعة، سمعته وهو يضحك ساخرا كأشرار أفلام الكارتون:

- نورت الكلية يا أمور، ها ها ها ها!

دخلت المستشفى وقد انقبض قلبي من كلامه، حاولت أن أتجاهله لكني لم أستطع، على العكس بدأت أطبق ما قاله على

الوجوه التي أراها، وجدت نفسي أجيد اللعبة سريعا، عرفت أن هؤلاء هم طلبة سنة أولى، متلمعين وحلوين وفل الفل، وهؤلاء الذين يحملون في أيديهم كُتبا ويمشون كالمساطيل بعيون حمراء وشعر منعكش وهالات سودة هم طلبة السنوات الأكبر.

عرفت بعد سنوات أن هذا العجوز اسمه عم جمعة. الحقيقة أنني عشت معه ليالي طويلة بعد دخولي الكلية، أصبح كابوسا متكررا يأتيني في المنام كل ليلة، يقف عاريا في بداية نفق مظلم ممسكا بعصا خشبية تشبه تلك التي يمسك بها رجال الشرطة الأمريكان، ويضحك ساخرا بطريقة مرعبة وهو يقول:

ـ تعالَ يا أمووووورر.

ثم يدفعني داخل النفق الذي يظهر له فجأة باب، يغلقه خلفي فيطلق صريرا مسموعا، فأقف لأدق على الباب بلا فائدة ثم ألتفت لأجد نفسي قد لبست البالطو الأبيض وحولي عشرات المرضى ينظرون إليَّ بكراهية وغضب، والفلاشات تضيء الحلم دون أن أعرف مصدرها، يختفي المرضى فجأة ثم تمطر السماء عليَّ أوراقا وكتبا من كل ناحية بغزارة شديدة، فيطير نصف رأسي العلوي (الذي يحتوي على المخ)، وأبدأ في المشي بخطوة متشنجة كالزومبي في أفلام الرعب والدماء تسيل بغزارة.

بعدها أجد نفسي أمام باب أسود ضخم كئيب مكتوب عليه بالدماء أيضا «المشرحة»، ثم تمتد فجأة يد ثقيلة لتسحبني

إلى الداخل فأجد أمامي عم جمعة بملامحه المخيفة وهو يصرخ:

ـ نورت المشرحة يا أموور.

ويضحك ضحكته الشريرة ثم يغلق الباب؛ فأغرق في ظلام دامس وأقوم مفزوعا وأنا أصرخ.

ذهبت لطبيب نفسي للعلاج، أخبرته بالحلم فضحك مؤكدا أن هذا شيء طبيعي وصحي في كلية الطب، وأن نفس الحلم ينتابه هو شخصيًا من آن لآخر بصور مختلفة. أكد لي أنني محظوظ لأن الحلم ينتهي هنا؛ لأني لو أكملته ورأيت ما سيحدث لي داخل المشرحة المظلمة فسأحزن جدًا.

سألته في فضول:

ـ همَّ هيعملوا فيَّ إيه جوه؟ هيموتوني؟

ـ ساعات!

ـ هيقطعوني؟

ـ ساعات!

ـ هيضربوني؟

ـ ساعات! بص أنا ما أقدرش أقولك بالضبط. كل واحد حسب ظروفه، ده الحلم نفسه بيتغير عند نفس الشخص باختلاف

الظروف اللي بيمر بيها في الكلية. يعني إنت لسة ما تعرفش اللي بيحصل في الكلية وماتعرفش غير جمعة؛ فحلمك ما بيكملش أكثر من كده؟ أنا بقى ياما شفت ولسة باشوف؛ فالحلم بيطول معايا شويتين.

ـ طيب ممكن حضرتك تقولي من باب الفضول، بس إيه اللي حصلك في آخر حلم.

تغير وجه الدكتور إلى اللون الأحمر، وارتفع صوته وهو يقول:

ـ امشِ اطلع برة يا سافل يا قليل الأدب.

بعد شهر واحد من دخول الكلية صدقت نبوءة الدكتور النفسي. نفس الحلم لكن من يتغير هو الشخص الذي يغلق عليَّ الباب، على حسب الامتحانات ورؤساء الأقسام وظروفهم.

ملحوظة: لم أعرف لماذا غضب الدكتور النفسي من سؤالي إلا بعد امتحانات الدكتوراه!

خمسة عين

احتجت إلى سنوات طويلة في عالم الطب لأعرف الرابط بين الكلية والمستشفى والمشرحة في الحلم، كنت قد عرفت من أول أن هناك مشرحتين؛ إحداهما اسمها مشرحة الموتى؛ والأخرى اسمها مشرحة الطلبة.

بالطبع لم أندهش عندما سمعت عن مشرحة الموتى، لكن مشرحة الطلبة! فهمت كل شيء لاحقا. مشرحة الموتى هي مكان محدد بحوائط وجدران، أما مشرحة الطلبة فهي خارقة للزمان والمكان: أماكن ووظائف وفترات من العمر تختلط فيها الأحلام بالكوابيس، والذكريات السعيدة بالذكريات المهببة! كلية الطب والامتياز والنيابة والتكليف وعدم التكليف والجامعة أو الوزارة، كلها مشرحة متعددة المراحل للطلبة. وبالتأكيد يوجد تشابه بين طلبة الطب والأموات؛ وجه الشبه الأول أن كليهما على ذمة الحساب والسؤال طوال الوقت مع فارق كبير بين سؤال العادل وأسئلة البشر! أما وجه الشبه الآخر فهو أن كليهما يتم تشريحه وتقطيعه حِتَت حِتَت لأسباب مختلفة. أما وجه الاختلاف فهو

أن الميت «والله أعلم» بمجرد خروجه من المشرحة «بيرتاح»، أو على الأقل يدفن في باطن الأرض ويصبح أمره بينه وبين رب رحيم. أما الطالب فبمجرد خروجه من الكلية ينتقل إلى مكان آخر وهو عمله طبيبا، والذي يمكن أن نطلق عليه: المفرمة.

فالأطباء في مدينة «هيرو» كلهم مفرومون، بعضهم مفروم في مفرمة الفقر، المرتب قليل والفرص أقل؛ لذلك فهو يعيش في همٍّ دائم. البعض الآخر ـ وهو من يراه الناس محظوظا لأنه أصبح طبيبا كبيرا ومشهورا ـ مفروم في مفرمة العمل، من عيادة لعيادة ومن مستشفى لمستشفى، ويسيطر عليه هاجس دائم وهو أنه رجل يعمل باليومية، فاليوم هو يعمل ويأخذ نقودا، لكن لو مرض في أي لحظة فسيعود إلى مرتب الحكومة أو المعاش الذي لا يكفي مصروف أسبوع واحد من الشهر؛ لذلك فالعديد منهم يتجه إلى العمل الحر بمجرد أن يجد في جيبه نقودا، بعضهم يعمل في المقاولات، وبعضهم يعمل في الجلود، وبعضهم في الملابس، وبعضهم افتتح مقاهي.. وهكذا، لكن هذا أيضا مفروم بين عمله وتجارته ونقوده التي يأخذها منه المدام والأولاد ثم يجلسون في تجمعات العائلة ليشتكوا منه في بجاحة:

ـ هو إحنا بنشوفه؟

لهذا نجد أن فكرة الخمسة عين ـ التي يدَّعي بعض الأطباء أنها لم تعد واقعا ـ لا زالت حقيقة مسلَّمة، كل ما في الأمر هو أن التعريفات تغيرت قليلا. وللتوضيح فقد انتشرت في منتصف

القرن الماضي مقولة تتحدث عن أن أي طبيب مصري يحقق سريعا من المال ما يكفيه للحصول على «الخمسة عين» وهي:

- عيادة.
- عروسة.
- عمارة.
- عربية.
- عزبة.

أما اليوم فهو أيضا على علاقة بالعين؛ لأن نظام «هيرو» بيطلّع «خمسة عين» أي طبيب، كالآتي:

- أولا: عينه.

ستتمقق في المذاكرة والامتحانات التي لا تنتهي.

- ثانيا: عين أهله.

سيدفعون دم قلبهم في دروسه الخصوصية، والصرف عليه لمدة لا تقل عن عشر سنوات إلى أن يصبح طبيبا محترما (ويا عالم!).

- ثالثا: عين مراته (إذا تزوج).

ستكتشف أنها اشترت التروماي «يعني إتنصب عليها»، وأن زوجها طول اليوم في الشوارع، أيًا كان بيشتغل أو بيدور على

شغل، المهم أنه في النهاية يعود إلى المنزل مش شايف قدامه (يعني لا نافع طبلة ولا طار).

• رابعا: عين أولاده.

هو لا يجد من يحكي لهم عن أمجاده سوى هؤلاء المساكين، وغالبا ما سيكون معقدا ويريدهم أن يذاكروا ليل نهار ـ ويالله العجب ـ لكي يواصلوا مشواره.

• خامسا: عين المريض.

الطبيب في مدينة «هيرو» يخرج بعدد من العُقد النفسية التي يُخرجها على المريض.

ومن المعروف عموما لعدد كبير من سكان مدينة «هيرو» أن التعامل مع الأطباء لعنة، طبعا طوابير المستشفيات الحكومية وطريقة المعاملة مفهومة، وهذه عموما سمة عامة في «هيرو». الفقير وقليل الحيلة يجب أن يُعذَّبا إلى أن يصلا إلى ما يفترض أنه حق من حقوقهما، بما في ذلك المواصلات والأكل والشرب وهكذا، أما عن الأغنياء فعدد لا بأس به من الأطباء يعذبهم بطرق مبتكرة، من أشهرها طريقة «الانتظار لدى الأطباء الكبار»؛ وهي طريقة تعتمد على جعل المريض ينتظر في العيادة من ساعتين إلى ست ساعات (لأن العيادة زحمة)، ولم يعد غريبا أن تجد المرضى يدخلون العيادات حاملين زجاجات الماء وأكياس الطعام، والبعض يحضر معه بيجامة لينام فيها إذا تأخر دخوله إلى ما بعد مواعيد النوم.

الطريقة الأخرى لتعذيب المرضى هي طريقة: «اخرس أنت، هو أنت دكتور؟». وهي طريقة تعتمد على تجاهل المريض وعدم السماح له بالكلام، أو بوصف حالته على أساس أن الدكتور عارف كل حاجة ـ ولاحظ جيدا التجانس بين كلمتَي دكتور ودكتاتور ـ وطبعا يخرج المريض حزينا على ما دفعه من نقود دون أن يُسمح له بأن يفتح فمه بكلمة واحدة.

ومن الحكايات الشهيرة، قصة الرجل الذي تم القبض عليه بتهمة الشغب في عيادة طبيب بعد أن كسَّر العيادة على دماغ الدكتور والسكرتيرة. اتضح في تحقيقات النيابة أن الرجل دخل العيادة وطلب أن يقابل الدكتور ضروري وبسرعة لأنه تعباااان. جاءه الرد من الممرضة:

ـ كشف مستعجل؟ تسعميت جنيه!

ـ اتفضلي. مش هتاخدي اسمي؟

ـ لأ مش مهم. الدكتور هيبقى ياخده.

ـ طيب مش...

ـ بس بقى كفاية زن. اقعد واستنى دورك.

ودخل المريض بعد خمس ساعات لأن الكشف المستعجل في مدينة «هيرو» يعني «إن شاء الله النهارده»، بعد ساعتين تلاتة أربعة مش مهم، المهم إنه النهارده.

بمجرد دخول المريض وقبل أن ينطق بكلمة كان الدكتور وصف العلاج في دقيقتين ونادى على الممرضة لتُدخل (اللي بعده).

الرجل وقف يصرخ ويقول:

ـ مش تسمعني الأول؟ أنت لا كشفت عليَّ ولا سألتني أنا باشتكي من إيه.

نهره الطبيب الشهير وأكد له أن سماع العيان ده كلام المبتدئين.

عندما اتهمه الرجل بـ«الكروتة» وأنه كتب له العلاج بدون حتى أن يكشف عليه، نظر إليه الطبيب في دهشة وقال:

ـ جرى إيه يا أستاذ؟ مفيش وقت للكلام ده. مش أنت اللي طلبت كشف مستعجل!

***

طبعا كتبت كل الجرائد عن تلك الحادثة، وطبعا يمكنك أن تعرف ما حدث للطبيب بعد ذلك، فقد أصبح من أشهر أطباء مصر، بعد أن أصبحت سمعته بالبلدي:

«إنه تِنك وعيادته زحمة، وكشفه غالي وبيكلمك من طرف مناخيره، وبيلطعك بره خمس ساعات، وبيخلص الساعة ستة الصبح».

واتضح لي مع الخبرة أن هذه هي الصفات التي يَصف بها عددٌ كبير من سكان «هيرو» الأطباءَ الممتازين.

وبالتالي فأي طبيب فاشل يمكن أن يعرف بسهولة من الصفات العكسية:

(متواضع وعيادته مش زحمة، وكشفه رخيص، وبيكلمك كويس، وبيدخلك على طول، وبيخلص في مواعيد بدري)،

وغالبا ما ينتهي الأمر بأمثال هؤلاء بالشحاتة أو الإفلاس، وعليه أن ينتظر الأجر والثواب من الله!

الأسطورة

لا أريد أن أخدعكم مدعيا أن الامتياز الذي كنت أحصل عليه رشحني لأكون من الأوائل، فالامتيازات عندنا في كلية الطب ـ جامعة «هيرو» على قفا من يشيل، ترتيبي كان يتراوح بين الثلاثمائة والثلاثمائة والخمسين، إلا أنني بضربة حظ وقليل من التخطيط نجحت في أن أصبح من نواب الكلية. والنواب في كلية الطب يساوون المعيدين في باقي كليات البشر، وتقول الأسطورة الهيروية المقدسة إنك إذا لم تصبح نائبا أو نائبة في الكلية فهذا يعني أنك ضللت الطريق إلى الطب والمجد، رغم أن الكلية مليئة بالأساتذة الذين ورثوا مكانهم في هيئة التدريس ضمن تركة الوالد مثل أي شيء آخر. يدخل عليه المحامي مرتديا كرافتة سوداء ويقول له بمنتهى الحزن:

ـ البقية في حياتك يا ابني، الوالد سابلكم أنت وأختك زيزي شقتين في الدقي، وشاليه في الساحل و٣ عضويات؛ عضوية في نادي الزمالك وعضوية في نادي الجزيرة وعضوية في هيئة تدريس الكلية في قسم جراحة التجميل.

فتلمع عيناه بالدموع وهو يجيب:

ـ مش ممكن تبدلي عضوية الزمالك بالأهلي، وعضوية هيئة تدريس جراحة التجميل بعضوية هيئة تدريس الجلدية علشان ما بحبش الدم؟

فيهز المحامي رأسه بدهشة واستنكار:

ـ تبدل عضوية الزمالك بالأهلي؟ مستحيل! فيه نظام وقانون ومجلس الإدارة مش ممكن هيرضى. أما موضوع مجلس الكلية فده سهل، ممكن نكلمهم حاضر، بس شوف زيزي أختك عاوزة تخصص إيه علشان نكلمهم مرة واحدة.

بمعنى أن هناك أساتذة ورثوا الأستاذية بسطوة وعلاقات الآباء فقط، وهناك أساتذة مستوى ذكائهم متوسط أو أقل من المتوسط لكن مهارتهم أنهم يجيدون الحفظ والصم والتكرار، وهناك أطباء جيدون خارج الكلية كان عيبهم الوحيد أنهم لا يجيدون تلك الثلاثية، وكل التباديل والتوافيق مقبولة فيما سبق؛ فهناك ابن أستاذ ومتفوق بالفعل، وهناك متفوقون من عامة الشعب يأخذون حقهم، ومتفوقون آخرون يأخذون على دماغهم!

اتلخبطت؟ ولا يهمك، فالموضوع ليست له قاعدة ثابتة كما يدعون، تتدخل في الأمر أشياء كثيرة غير الواسطة مثل الحظ والنصيب ورضا الوالدين سواء استكملت مشوارك داخل السلك الجامعي أو خارجه، لكن تلك الأسطورة المقدسة التي تؤكد أن

الخارج من نطاق هيئة التدريس محروم من بركة آلهة الطب تفسد على الطلبة حياتهم وعقولهم، ويروج لها على مدار سنوات الكلية كل من يُدرسون لك «لأنهم جميعا من أعضاء هيئة التدريس». والموضوع أشبه بالإشاعات التي تستخدمها الحكومات للسيطرة على عقول الشعوب، والطلبة الغلابة يصدقون؛ لذلك لا تندهش إذا عرفت أن طبيبا تخرج في جامعة «هيرو» هاجر مضطرا لأنه فاشل تخرج في كلية الطب بتقدير امتياز منخفض ولن يصبح معيدا، أو إذا عرفت أن طالبة شابة قطعت شرايين يدها بعد الامتحانات لأنها قررت أن تنهي حياتها قبل ما تظهر النتيجة ـ بجيد جدًا مثلا ـ والفضيحة تبان!

والحقيقة أن عددًا كبيرًا من الأطباء الاستشاريين الذين عرفتهم داخل جامعة «هيرو» وخارجها مكانهم المناسب هو طبيب إسعافات أولية في حضانة درجة ثانية في مساكن إيواء لم يتم تسليمها حفاظا على صحة المرضى. وأحد هؤلاء تحديدا كان سببا مباشرا في أن أصبح أنا أيضا نائبا (معيدا) في الكلية على حساب «صاحب المحل»، تسألني كيف أصبحت معيدا وترتيبي الثلاثمائة على الدفعة ومن هو صاحب المحل؟ أقول لك يا سيدي.

***

زميلي في الدفعة كان الدكتور ـ المشهور جدًا الآن ـ أبو خطوة المبروك، ابن الأستاذ الدكتور عبد الجبار المبروك.

وكانت علاقتي أنا فقط به طيلة سنوات الكلية على أفضل ما يرام، بينما كان الكل يتعامل معه بقسوة وسخرية بالرغم من أنه - والله العظيم - كان طيبا. أي نعم كان يعاني من درجة بسيطة من البلاهة المكتسبة، والناتجة عن العزلة المزمنة مع بابا وماما والسواق والطباخ فقط، والتي تظهر في لسانه المتدلي ونظراته العجيبة وسخافته غير المسبوقة، لكني بوصفي طبيبا وإنسانا كنت أحبه وأستمتع بصحبته، إلى جانب أن فكرة صداقتي لابن أستاذ مشهور كانت تعجبني، وفكرة أنه صديق لواحد عنده مخ كانت تعجبه.

في أول عام في الكلية كنت أحاول أن أذاكر له ومعه، إلا أن اليأس تسلل إلى قلبي عندما اكتشفت أنه يظن أن الفارق بين الرجل والمرأة ينحصر في أن البنت شعرها طويل والرجل شعره قصير، وأن المرأة تحمل عندما يُقبلها الرجل قُبلة طويلة مثل التي كانت تنهي الأفلام العربي القديمة. اكتشفت بعدها أنه فشل في كل المدارس التي مر عليها حتى مدارس الحالات الخاصة، وأنه دخل كلية الطب بعد أن حصل على شهادة الثانوية من دولة أوروبية صديقة، رغم أنه لم يغادر حدود الوطن بل الشهادة هي التي جاءت إليه.

حاولت أن أشرح له الفارق بين الجنسين، إلا أنه قفز فوق السرير وأخذ يغني لي في هستيريا: البنت زي الولد.. ماهيش كمالة عدد!

لم أجد حلًا سوى أن أفتح له مواقع من التي تعرفونها على النت شارحا له الفوارق الشكلية وكيفية التزاوج بين الرجل والمرأة. ضحك ساخرا من سذاجتي، وهزَّ رأسه نافيا وشارحا لي أن هذه طريقة عقاب الخادمات عندما يخطئن، وأن والده يتبع نفس الطريقة مع كل الخادمات اللاتي يعملن عنده في البيت. عندما سخرت منه وأصررت على موقفي، بكل حماقة خطف من أمامي اللاب توب وجرى على أمه، التي دخلت لي غاضبة، وأخذت تلعن وتسب الجيل الجديد. الحقيقة أنني عندما رأيتها بدأت أشك في معلوماتي عن الفرق بين الجنسين، فهي تملك كل مقومات الذكورة بما في ذلك الشنب.

تساءلت كثيرا في داخلي عن السبب الذي دعا الدكتور عبد الجبار إلى الزواج بهذا الأخ، اتضح لي بعد ذلك بسنوات انها ابنة المرحوم الدكتور علي السالك عميد الكلية السابق، وكانت وش الخير عليه، فبمجرد زواجه بها هطل الرزق من السماء، فاشترى سيارة وشقة وسافر في بعثة إلى ألمانيا. اكتشف هناك أن البلاهة المكتسبة مرض طبقي قابل للتوريث؛ لذلك اكتفى بخلفة أبوخطوة، لا سيما عندما اكتشف أنه ورث منها المرض. المهم أنها بعد أن انهالت عليَّ سبًّا وتقريعا جلست تشرح لولدها أن هذه الأشياء البارزة في البنات كلها صناعية وأصلها السليكون، وأن هذه الوجوه الجميلة والشعور الحريرية التي يراها مجرد خدع سينمائية وتركيبات ومكياج.

التفت لي أبو خطوة وهو يمسح ريالته التي انسابت:

- فهمت يا حمار، بص لماما وانت تفهم.

حاولت كثيرا بعد ذلك أن أقنع أبو خطوة بتحويل مساره إلى أي كلية نظرية أو عمل يدوي يناسب قدراته، لكن يبدو أنه لم يفهم ما أعنيه، فشعرت بالشفقة عليه؛ لأن مصيره الحتمي هو الفصل من الكلية بمجرد استنفاد مرات الرسوب.

الماء والنور

في نهاية السنة الأولى ذهبت لأرى النتيجة ومعي أبو خطوة، بدأت في البحث عن اسمي ـ كعادة المتفوقين ـ من أعلى إلى أسفل، وطلبت منه أن يبحث عن اسمه من أسفل إلى أعلى، اتضح ـ ويا للهول ـ أن أبو خطوة هو العاشر على الدفعة وأنا ترتيبي الأربعمائة والعشرون.

بمرور الأيام بدأت أفهم الحقيقة. إمكانات أبو خطوة تفوق قدراتي كثيرا.

السنوات الثلاث الأولى كان ترتيبه دائما في العشرة الأوائل، المفاجأة ظهرت عندما تغير رئيس الكنترول بعد فضيحة كبرى اتضح فيها أن رئيس الكنترول السابق كان يغير درجات الطلبة «بمزاجه»، ويبدو أن مزاجه كان رايق زيادة في إحدى المرات، فخرجت النتيجة وهي تحمل بشرى حصول أحد الطلبة (تصادف أنه ابن أستاذ في نفس القسم الذي يعمل فيه رئيس الكنترول) على صدارة الترتيب، وهو شيء عادي، غير العادي كان مجموع

الدرجات التي جاءت ٨٢٣ من ٨٠٠، رغم أن الكلية لم يدخل فيها موضوع المستوى الرفيع حتى تاريخه.

كان من الممكن أن يمر الأمر ببساطة ككل شيء يحدث في طب «هيرو»، إلا أنه تصادف أن أحد الطلبة ـ والده صحفي شهير ـ صوَّر النتيجة ونشرها، وتم إعفاء الأستاذ من الكنترول وتحويله للنيابة، لكنه حصل على براءة فورية لأن النيابة لم تجد أي دليل على الجريمة سوى صورة الصحيفة بعد أن تم تغيير كل الورق في الكنترول!

وجاء الأستاذ الدكتور عادل المستقيم ليصبح رئيسا للكنترول. تقدم ترتيبي في ذلك العام لأجد نفسي من العشرة الأوائل، أما أبو خطوة فقد جاء ترتيبه في ذلك العام الألف وثلاثمائة بعد أن نجح في الدور الثاني بمجهود مضنٍ من والديه.

لكن كل شيء عاد إلى طبيعته بعد عام واحد فقط، استعدت ترتيبي المعتاد واستعاد أبو خطوة ترتيبه بعد استقالة الدكتور عادل المستقيم وهجرته إلى أمريكا هو وأبنائه، والتي بررها العميد لإحدى جرائد المعارضة بأن الكنترول كان «وشه وحش عليه». فقد رفضت كل المستشفيات الكبرى فجأة التعامل معه، ورسب ولده الذي كان من أوائل الثانوية العامة في السنة الثانية من الكلية رغم أنه كان الأول في العام الماضي، والأدهى من ذلك أن ابنته التي كانت متزوجة الأستاذ الدكتور «رمضان تحت أمرك يافندم» طُلقت في نفس العام.

المهم أن هذا العام بالتحديد أثر في حياتي كثيرا، فترتيبي التراكمي تقدم قليلا لأصبح الثلاثمائة. وتأخر ترتيب أبو خطوة ليصبح بعدي بعشرين، عندما كنت أملأ رغبات التعيين في الكلية كان الكل يعرف أن تعييني في هيئة التدريس شبه مستحيل، إلا أنني كنت في منتهى الثقة، لا سيما بعد أن أصبح الدكتور عبد الجبار وكيلا للكلية. كنت قد شربت الصنعة في سنوات الدراسة، اشتريت لأبو خطوة باكو شيكولاتة كبيرًا (بأربعين جنيها والله). لم أعطه له إلا بعد أن أخبرني أنه سيكتب في الرغبات جراحة المسالك والدهاليز. أخبرته أن من المستحيل أن يحصل عليها لأنها من تخصصات الأوائل، والكلية أعلنت أنها لن تقبل سوى اثنين فقط من النواب فيها هذا العام.

أجابني وفمه ملطخ بالشيكولاتة أُم أربعين جنيها:

ـ بابا اللي قاللي كده، أقوله لأ؟

أخذت منه قطعة من الشيكولاتة رغما عنه وأنا أهز رأسي شاردا مغمغما:

ـ حد يقول لبابا لأ؟

خرجت نتيجة التعيينات مفاجئة للجميع؛ الأساتذة والطلبة، فقد فوجئ كل خريجي دفعتي بأن جراحة المسالك والدهاليز طلبت نائبا إضافيّا في اللحظة الـ«ما بعد الأخيرة»؛ أي ما بعد إغلاق باب التقديم؛ لأن حاجة القسم زادت، وفوجئ السادة

الدكاترة بأنني كتبتها قبل الأخ أبو خطوة، فاستدعاني رئيس القسم طالبا مني بمنتهى الحدة سحب رغبتي لأنني «مش هاشوف مية ولا نور طول ماهو عايش». لم أجد أمامي فرصا أخرى؛ لذلك استأسدت وأصررت على موقفي.

سألت بعدها العديد من أصدقائي عن تعريف المية والنور في الطب. أخبرني بعضهم أن المقصود هو أنني لن أدخل جراحة واحدة في القسم الذي أعمل فيه؛ وبالتالي فلن أتعلم أي شيء في تخصصي وستدور عليَّ الأيام لأجد نفسي في النهاية لا زلت عند الصفر.

البعض الآخر أخبرني أن الأمر لن يقف عند هذا الحد بل إنه «هيقرفني»؛ أي سيُحملني كل ما نسميه في الطب «Dirty work»، بالعربي الشغل القذر، قد تكون الكلمة قاسية لكنها دارجة عندنا جدًا.

المفروض أن الأطباء يساعدون في العمليات ويتعلمون ويتابعون المرضى، والأعمال الإدارية يقوم بها في كل بلاد العالم موظفون إداريون، فهي لا تحتاج لتعليم ولا تدريب من نوع خاص: مثل حجز أشعة للمريض، توصيل عينات الدم من القسم إلى المعمل (ممكن تلاقي المعمل فاضي أو يقولك: روح اعمله في مستشفى الأطفال)، أو حجز أكياس الدم وإحضارها (غالبا هتتحايل وتبوس الأيادي عشان يدولك الفصيلة اللي أنت عاوزها)، كلها أعمال تأكل من الوقت الذي

يفترض بك أن تكون واقفا فيه إلى جوار أحد الأساتذة تعاونه وتتعلم منه، وكلها في «هيرو» مسئولية الأطباء الصغار، الامتياز أو النواب الجدد.

والحقيقة أنها تأكل من أعمارهم أكلًا، يسمونها المشاوير!

ومشوار واحد قد يستغرق نوبتجية كاملة. لذلك لا تتعجب إذا كنت مارًّا أمام أحد مستشفيات جامعة «هيرو» ورأيت أمامك شابًّا أنيقا صغير السن يرتدي معطفا أبيض نظيفا بالطبع لأنه لا يتعامل مع مرضى ولا يسحب العينة، يحمل خمسة أو ستة أكياس دم (بالطبع لا يوجد أيس بوكس) ويضمها إلى صدره مثلما تفعل بنات المدارس الثانوية، وقد تراه يجري في الشارع ليلحق العملية قبل أن تنتهي نهاية غير سعيدة، وقد تشعر أن منظر أكياس الدم مقزز وغير صحي لكنه مضطر.

أما إذا كان حامل الدم كبير السن يرتدي معطفا أبيض تغطيه البقع فهو ممرِّض. وإذا كان أكبر سنّا وملابسه قذرة فهو غالبا عامل من عُمال النظافة، وغالبا كلاهما يؤدي هذا العمل بدلا من الطبيب لقاء مقابلٍ مادي محترم، من الطبيب الصغير الذي يحاول أن يكون محترما، ومن الجدير بالذكر هنا أن التضاد من عجائب هيرو الكبرى، فكما ذكرت أن عامل النظافة غالبا لا يرتدي ملابس نظيفة، يجب أن أذكر أن عامل الأمن هو أفضل طريق للتسلل إلى داخل المستشفى، وأن أكبر ظاهرة غش جماعي قد

تحدث بمعرفة رئيس القسم الذي يقرر أن يمتحن أبناء زملائه ويمنحهم جميعا الدرجة النهائية كما سأحكي لكم لاحقا، ثم يقول لأمثالي: مش هتشوفوا مية ولا نور!

علمني أكبر أصدقائي الدكتور حكيم تعريفا مختلفا لذلك التهديد أجده أكثرها إقناعا، فالماء هو أساس حياة أي إنسان، والماجستير هو أساس الحياة لأي طبيب، قبله أنت مجرد ممارس عام؛ بما يعني في عالم الأطباء أنك لا شيء. تعمل في المستشفيات طبيبا نوبتجيًا بمتوسط خمسين جنيهًا للاثنتي عشرة ساعة، تأكل خلالها وجبتين بما لا يقل عن ربع المبلغ على حسب الوجبة، وتشرب شايا وقهوة بربع ثانٍ. وتعود إلى بيت أبيك حاملا عشرة جنيهات، فالمواصلات التي ستتنقلك من وإلى البيت قد تأكل باقي المبلغ لو أنك سفيه يركب التاكسيات، أما لو اشترى لك بابا سيارة فستحتاج إلى بنزين بما يقرب من نفس المبلغ، في النهاية ستكون مفلسًا في جميع الأحوال لكن تكفيك نظرة الناس واحترامهم لك وأنت داخل وخارج من المستشفى، هذا الاحترام ستفسده عليك من آنٍ لآخر تعليقات الأطباء الأكبر عندما تتصل بهم لتشرح لهم الحالة التي رأيتها وتطلب منهم النصيحة، والتي خلاصتها أنك لا تفهم شيئا، أي مجرد.. حمار ببالطو أبيض!

أما النور فهو ما يجعلك تَرى وتُرى (بالفتح والضم)، وهو ما يعادل الدكتوراه في الطب، بعدها تجلس منجعصًا وتقول: أنا حاصل على الدكتوراه، وستصبح استشاريًّا أو أستاذًا؛ يعني

باشا! لذلك كان حكيم على حق عندما قال لي إن الماجستير مية، والدكتوراه نور.

قررت أن أخوض التجربة للنهاية، أخذت الوظيفة بالرغم من أن أبو خطوة جرى خلفي في الكلية يقذفني بالحجارة وهو يتهمني أنني ضحكت عليه وسرقت وظيفته بقطعة شيكولاتة، كان منظرنا مضحكا لا سيما أن بعض العيال الصغيرة طلعت تجري خلفنا وهي تصيح: حرامي، حرامي.

لكني في النهاية نجحت في إرضائه بكيس شيبسي من الحجم العائلي وأيس كريم من «أبو عصاية» كما يحب أن يطلق عليه، وانتهت المشكلة تماما عندما أعلن قسم جراحة المسالك والدهاليز عن حاجته إلى طبيب جديد في التخصص (لأنهم كانوا ناسيين يعِدوا كويس)!

صراع البتوع

من الغريب هاجس ورغبة الآباء في دخول أولادهم الطب في هذه المدينة المجنونة، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، وإذا حاولت تحذير أي منهم من السقوط في حفرة عمقها المبدئي سبع سنوات حالكة السواد، ثم ما يستجد من سنوات فلن ينصت إليك، سينظر إليك مبديًا اقتناعا تامّا بكلامك ثم يلعن جدودك واحدا واحدا لأنك لا تريد أن يشاركك أحد في الكنز؛ الطب الهيروي الجبار!

هذا ما فعله معي أبي، وهذا ما قاله عمن حاول تحذيره أو تحذيري. سقاني خلاصة منقوع الرغبة المتوحشة والهياج الذي لا يهدأ من أجل دخول كلية الطب، كان حلما عاش معي طيلة سنوات عمري، بعد أن ورثته عنه.

أبي، الأستاذ مشتاق الطيب، الذي قضى عمره مدرسًا لمادة الأحياء في مدرسة أم الخير الثانوية. كان حلم حياته أن يصبح طبيبا أيام البكالوريا والطربوش وعباس أفندي مدرس اللغة

العربية. لكن حلمه لم يتحقق. بل التحق بكلية المعلمين العليا ليصبح مدرسا. ولأن الحكمة تقول إن ما لا يُدرَك كله لا يترك كله، اختار أبي تدريس الأحياء، وأطلق على نفسه في مجموعات التقوية التي كان يحضر كل حصة منها ما لا يقل عن خمسين طالبا؛ لقبَ الدكتور مشتاق، بل إنه أضاف إلى اسم العائلة حرف باء زائدا في كارته الشخصي ليصبح مشتاق «الطبيب» بدلا من الطيب!

وكان كل طلبة الثانوي في الحي يعرفون أن أكثر ما يغضب الأستاذ مشتاق هو أن تناديه بلقب الأستاذ أو المستر، وكان يجيب على الفور: «دكتور يا جاهل»، ويطرده من درسه بعدها مباشرة؛ ليتعلم الأدب مع أساتذته وألا يتخطى حدوده. ولأن الصِّيت ولا الغِنى، والزن على الودان أمرّ من السِّحر، نجح أبي في أن يصبح اسمه ملتصقا بلقب الدكتور، حتى أمي وجدّي وجميع أفراد العائلة عدا عمتي الكبرى فهيمة أم لسان طويل.

قضيت أولى سنوات عمري في حيرة شديدة من السبب الذي يجعل أبي «الدكتور» يعمل في مدرسة لا في مستشفى، إلى أن شرحت لنا العمة فهيمة أم لسان طويل الحكاية كلها في أحد أيام تجمع العائلة على مائدة إفطار رمضان عندما نادته أمامنا جميعا:

ـ إنت يا واد يا مشتاق.

نظر إليها في غضب موبخًا:

ـ عيب يا أبلة فهيمة أنا ما بقتش واد، حسِّني ملافظك.

هنا انطلقت كلماتها كمدافع سريعة الطلقات، حاول أبي أن يقاطعها لكنها كانت أقدر من ذلك كثيرا:

ـ مالها ملافظي يا ناقص يا أبو عقدة وشنيطة؟ عاوزني أناديك وأقولك: يا دكتور أنا كمان؟ يا شيخ اتلهي. إنت صدقت نفسك ولّا إيه يا خوجة العيال يا نصاب؟ دا أنت خريج معهد معلمين، وكنت بتاخد السنة ف سنتين، طيب ها تموت ويقولولك يا دكتور كنت اعمل دكتوراه واتمحّك بيها في الدكاترة، مش تقعد تتنطط زي الفرقع لوز وتقول للناس: أنا الدكتور.

انصرفنا بعد هذا الحوار القاسي بلحظات قليلة، رأيت الدموع تلمع في عينَي أبي وهو يقول لأمي بصوت خافت: عندها حق، الحكاية مش اسم والسلام. الحقيقة أن ذلك اليوم ترك أثرا على أسرتنا بالكامل، فعقلي الصغير أدرك أن الدكتور حاجة مهمة قوي، وأبي لم يصل إليها؛ لذلك فهو ليل نهار «بيتمحَّك في الدكاترة». لذلك قررت أن «أموِّت نفسي في المذاكرة» حتى أصل إلى كلية القمة، أما أبي نفسه فقد شمر عن ساعديه، وقرر أن يبدأ في دراسة الطب، نزل إلى المكتبة المجاورة ليشتري كتاب «الطب بغير معلم» للدكتور حلّال العقد، وكتاب «ولا مرض ولا أسباب ـ كله يخف بالأعشاب» للأستاذ الدكتور حلنجي أبو سابقتين. وبكثرة قراءاته بدأ يصدق نفسه ويتخيل أنه يفهم في الطب، وكانت هذه مصيبة، لكن المصيبة الأكبر كانت في

أن الناس اللي حوالينا كلهم صدقوه. والحقيقة أنه كان يتكلم مثل الأطباء الذين كنا نراهم في التلفزيون بالضبط. مع الوقت بدأ أبي يصف العلاج لكل معارفنا ومن حولنا، وبدأ يعمم لبس البالطو الأبيض على جميع مواطني البيت، وأحضر لأمي مريلة من الرصاص كالتي يستعملها أطباء الأشعة بدلا من مريلة المطبخ المعتادة، وبدأ يحدد مواعيد لمقابلة المرضى في صالون بيتنا. وعندما اتهمه بعض الجيران بالدجل، أقر شيخ المسجد الذي كان يتعالج عنده أنه ليس دجالا بدليل أنه لا يطلب مالا من مرضاه، واستشهد بأن أبي هو من عالج المرحومة شفيقة والمرحومة سميحة والمرحوم راضي. كما أنه أشرف على علاج قدم الحاج مرسي الفرارجي، وأنها أصبحت زي الفل، وأقسم إنه رآها بعينيه زي الفل قبل أن يدفنوها في الأرض بعد بترها من فوق الركبة.

والحقيقة أنني في فترة مراهقتي بدأت أنظر إلى أبي نظرة مختلفة؛ فبعد أن كنت أراه أفضل أب في الدنيا، أقدر موهبته في التدريس التي جعلته أشهر مدرس أحياء في المنطقة، وفتاويه الطبية التي جعلته يقوم بدور حكيم الشارع، إلا أنني بدأت أنظر إليه بعد هذه السنوات على أنه «حب ولا طالش»، وأدركت أنه لا حياة في هذه الدنيا لغير الأطباء، وأول تخصص حلمت به كان طب الفم والأسنان، إلا أن أبي كرَّهني فيه سريعا عندما أخبرني أنه يريدني طبيبا بحق وحقيق، وأكد لي أن المستوى العقلي للطبيب البشري أعلى من مستوى ذكاء أطباء الأسنان؛ بدليل أن

الأخير يقضي خمسة أعوام لدراسة مساحة صغيرة جدًا، بينما يقضي الأطباء البشريون (الأذكياء) ستة أعوام في دراسة مساحة تفوق مساحة الفم عشرات المرات. عندما أبديت إصرارا على أن أكون طبيب أسنان صرخ فيَّ غاضبا، حرمني من المصروف، وقال لأمي التي حاولت أن تتوسط لي عنده:

ـ ابنك خايب يا ست هانم، عاوز علمه كله يبدأ من الشفة اللي فوق، وينتهي عند الشفة اللي تحت، جيل كسلان.

الخلاصة أن الحلم تفاقم في داخلي بالإجبار، لكنني احترت في تقدير صعوبة المشوار، فالحي من حولنا كان مليئا بالدكاترة، كلهم بسم الله ما شاء الله بهوات، شكلهم يفرح، وسياراتهم تفرح أكثر. استثنيت منهم الدكتور حامد مطحون والذي كنت أراه دائما مبهدلا، في الصباح الباكر وهو واقف على محطة الأتوبيس بنظارته الأثرية، وفي نهاية اليوم عائدا وقد زاد بهدلة. ترسخت في ذهني حقيقة أنه «مش دكتور ولا حاجة» لا بد أن يكون مثل أبي، بيتلزق في الدكترة. صدمتي كانت أكبر كثيرا من العمر الذي وصلت إليه وقتما اكتشفت أنه الوحيد الذي يعمل طبيبا بحق وحقيق في كل دكاترة شارعنا! فقد اتضح بعد قليل من البحث والتمحيص الآتي:

- الدكتور نعيم حلاق، والبالطو الأبيض لزوم الشياكة.
- الدكتور جابر يملك ورشة إصلاح شروخ الزجاج

(مفهوم)، لكن مكتوب على ورشته «الكشف بأشعة إكس» (غير مفهوم)، لكن يبدو أنه تقمص الدور أكثر من أبي فهو لا يسمح بوجود أكثر من مرافق واحد لحالات الشروخ، واثنين على الأكثر في حالات الكسور.

• الدكتور نشيط يعمل مدرس ألعاب في مدرسة أجنبية، وهو المعالج الأول لجميع الطلبة والمدرسين والدادات، ويؤكد أنهم يدرسون الطب والإصابات الرياضية بالتفصيل في كلية تربية رياضية.

باختصار، لا فيهم دكتور طبيب، ولا دكتور حقيقي بشهادة دكتوراه، كلهم كانوا يريدون اللقب فمنحوه لأنفسهم؛ نتيجة عُقد نفسية مفهومة وواضحة لدى أصحابها.

والحقيقة أنني بعدما أصبحت طبيبا رأيت بعيني صراعات مريرة على هذا اللقب لا أعتقد أنها موجودة في أي بلد في العالم إلا في مدينة «هيرو». وإن وجدت في مكان آخر فلا بد أنها ستتواجد في وطني حبيبي الوطن الأكبر. فلقب دكتور عندنا يُمنح لأي «عيل» يدخل كلية الطب أو الأسنان أو الصيدلة أو العلوم، ولأي واحد يتخرج في تلك الكليات، فيخط قبل اسمه حرف الدال الجميل الشيك بدلا من حرف الطاء الثقيل على القلب، فلا يقبل أن يصبح طاء طالب أو طاء طبيب، بل هو فقط دال دكتور وبس.

بعد أن كبرت حاولت أن أمنح أبي راحة نفسية يستحقها فقلت له إنه أفضل أب في الدنيا وإنه لا يحتاج أي ألقاب لتزيد احترام الناس له. نظر لي في عتاب وهو يسأل:

- يعني هو اللقب ده كتير عليَّ؟

- مش قصدي يابابا، لكن أنت مُعلم فاضل من غير حاجة، وياما علمت دكاترة ومهندسين، مش ناقص.

هز رأسه رافضا:

- يا ابني الألقاب دي وجاهة، وبعدين دول الفنانين والسياسيين وحتى الرؤساء والملوك بيحطولهم لقب تاني، جت عليَّ أنا بقى؟

وصراع الألقاب في المستشفيات أشد حدة من صراع اللقب بين الأهلي والزمالك أيام زمان. فالأطباء بعد قضاء عشرات السنين في الكلية يجدون أنهم لم يخرجوا بأي شيء سوى لقب دكتور وبالطو أبيض؛ لذلك يحاولون التأكيد على أنهم هم فقط أصحاب اللقب، ويمنحون كل من يحيط بهم لقب بتاع.

فتجد بعضهم يصف إخصائي العلاج الطبيعي وإخصائي التحليل والصيدلي كالآتي:

بتاع العلاج الطبيعي وبتاع المعمل وبتاع الأدوية.

وهنا تبدأ الخناقة ويبدأ الردح، خناقة على طريقة «أنا دكتور

ونص غصب عنك»، ويبدأ اللت والعجن والهجوم المضاد عن طريق التأكيد على المرضى أنهم يفهمون أكثر من «الدكاترة» وأنهم درسوا طبّا أكثر مما في كلية الطب مع إضافة المواد الخاصة بتخصصاتهم الأخرى. لكن الطبيب (اللي لسة مش دكتور برضه) يرفض في غضب إطلاق لفظة دكتور على حد غيره، وهذا الآخر لن يسكت بالتأكيد، وأفضل انتقام رأيته كان من صيدلي في المستشفى نجح في أن ينشر بين المرضي الغلابة أن الأطباء أيضا (بتوع) تخصصاتهم، ولم تكن المشكلة كبيرة (في بتوع الجراحة ولا بتوع العظام ولا بتوع الجلدية)، الكارثة عندما التصقت تخصصات أخرى كالنساء والذكورة والأطفال بالكلمة، فتداول المرضى أن الدكتور ناصر بتاع ستات، وعمرو بتاع رجالة.. وسامح بتاع عيال! ووصل الأمر إلى الأقسام والمحاكم.

والحقيقة أن هناك كثيرين في المجال ممن تفرغوا لدراسة الألقاب ونظموا مظاهرات كاملة لتغيير مسميات وتعريفات التخصصات حتى أصبح لدينا نحن فقط وحصريّا مؤتمرات ومناقشات في «مين بيشتغل إيه»، رغم أنها أمور حُسمت تماما في العالم كله منذ أيام طب الفراعنة!

الفضيحة

قررت أن أبدأ في الاستعداد للكلية مبكرا. ذهبت للقاء الدكتور «حامد المطحون» بعد أن تأكد أبي من وظيفته عن طريق الجيران، وكعادته في تفسير كل شيء على هواه أكد لي أن الدكاترة الشطار «ممكن يكونوا مبهدلين من انشغالهم بالمذاكرة والعلم»، إلى جانب زهدهم في الحياة من كثرة ما يرونه من مصائب. بالتالي شرح لي أبي أن هذا الرجل غالبا عبقري.

انتظرته على محطة الأتوبيس في ميعاد رجوعه، كالعادة نزل في حالة بهدلة مُركبة، شعره منكوش ونظارته مائلة على أنفه، ناديته فنظر لي للحظة، سألني في ارتياب:

ـ إنت مين؟

ـ حضرتك ماتعرفنيش؟ أنا عشمان الطيب.

ـ إنت من عند البقال ولا الجزار؟ ما تفرقش، لو لقيت معايا فلوس فخدها.

ـ يا دكتور أنا عشمان ابن الدكتور مشتاق الطيب.

نظر إليَّ من تحت نظارته:

ـ آآآه الراجل النصاب اللي بيعالج بالأعشاب والذي منه.

أجبت بغضب:

ـ أبويا مش نصاب.

ـ طيب يا سيدي حقك عليَّ.. وعاوز إيه بقى؟

ـ عاوز أسأل حضرتك كام سؤال؛ عشان أنا داخل الكلية إن شاء الله.

عدل نظارته وابتسم وهو يقول:

ـ ألف مبروك يا بني، وداخل كلية إيه؟

ـ كلية الطب طبعا يا دكتور.

هز رأسه في استنكار وهو «يطقطق» بشفتيه رافضا، ثم سرح لعدة دقائق، بعدها فوجئت به ينظر إليَّ والدموع تملأ عينيه. ثم بدأ يولول كالندابة المحترفة:

ـ الله يلعن أبو اللي دخل قبلي وما قاليش، واللي دخل بعدي وما سمعش كلامي.

حاولت أن أهدئ من روعه، وأفهم ما يقول فتعالى صوته وبكاؤه أكثر وهو يقول:

ـ الله يلعن أبو اللي دخل قبلي وما قاليش، واللي دخل بعدي وما سمعش كلامي.

طبعا بدأت الناس تتلم علينا، وهو يصرخ ويلطم على وشه في هستيريا:

ـ الله يلعن أبو اللي دخل قبلي وما قاليش، واللي دخل بعدي وما سمعش كلامي.

أصبت بحالة من هلع، ملت على أذنه موشوشًا:

ـ خلاص يا دكتور، ماتفرجش الناس علينا.

لكن صوته كان قد تخطى مرحلة البكاء إلى مرحلة الفضيحة، بدأت الأصوات تعلو من كل جانب:

«حد يجيبله كرسي ـ كبر في ودنه ـ دا باينه ملبوس ـ كوباية ميَّة ياناس».

بعد دقائق كانوا قد أحضروا له كرسيًّا من القهوة، وصب على رأسه الحاج مرسي صاحب القهوة شفشق ميَّة ساقعة، ثم أعطاه كوبا من الليمون، والحمد لله شربه على مرة واحدة وبدأ يهدأ.

سحبت كرسيًا آخر وجلست إلى جواره (لآخذ بيده)، نظر إليَّ في إرهاق وبدأ يتكلم كما لو كان قد أفاق لتوه من غيبوبة:

ـ ليه كده يا بني كفى الله الشر، إن شاء الله ربنا يسترها معاك وماتخشش المحروقة دية.

ـ محروقة ليه بس يا دكتور؟ دا أنا عاوز أخدم البشرية. وألبس البالطو الأبيض.

هز رأسه موافقا ومؤكدا:

ـ من ناحية الخدمة هاتخدم، ومن ناحية اللبس هتلبس، بس من وفين؟ هو ده السؤال.

ـ مش مهم، المهم أخدم وألبس.

ـ شوف يا بني أنا من ساعة ما اتخرجت وأنا باخدم، يعني وأنا في امتياز كنت لابس البالطو وباخدم، ومصيبتي السودة إن مجموعتي كان فيها خمس بنات؛ واحدة حامل وواحدة بنت أستاذ وواحدة حلوة وواحدة وحشة وواحدة عادة.

ـ عادة؟

ـ أيوة عادة، يعني مالهاش شكل ولا لون، لا حلوة ولا وحشة، لا واسطة ولا حامل ولا حاجة، المهم، ييجي المدرس بتاع القسم يحط الجدول، يقولك: دي تريح عشان يا عيني حامل وناخد منها ثواب، ودي تريح عشان دي بنت أستاذ وناخد منها مصلحة، ود تريح عشان الجمال دا مش لازم يتبهدل وناخد منها معاد، ودي تريح عشان وحشة مش متجوزة وناخد منها بالنا، تفضل نوبتجيات الشهر كله علينا أنا والغلبانة.

سألته في براءة:

ـ كان بياخد منكو إيه؟

ـ ولا حاجة يا حبيبي، إحنا اللي كنا بناخد.

ـ بتاخدوا إيه يا دكتور؟

نظر إليَّ مبتسما:

ـ كل حاجة يا ابني، نوبتجيات بالأسبوع، تهزيق، مشاوير، وخلافه، السنة كلها على كده، نلبس البالطو الأبيض ونخدم، نلبس ونخدم، لما استوينا أنا وهيَّ.

المهم يا عم، مرة كان هيجيلي انهيار عصبي، بعتوني أجيب كيسين دم أو، وكيس بي، وقالولي اتوصى، رجعت بيهم قالولي:

ـ روح اعمل طلب أشعة للعيان في السرير التاني وتعالَ بسرعة.

عملته ورجعت، قالولي:

ـ العيان مات، غيَّر طلب الأشعة اللي عملته للعيان بالعيان اللي جنبه.

غيرته ورجعت قالولي:

ـ العيان طلع ما ماتش وكان بيستهبل، روح هات طلب الأشعة تاني.

رحت جبته ورجعت قالولي:

ـ رئيس القسم باعت البواب بتاعه عشان يعمل عملية طهارة لأنه كان مشغول الخمسين سنة اللي فاتوا، وخد بالك وصي الجراح عليه وعلى العملية عشان دا واسطة.

طلعت أستناه بره المستشفى، وفضلت واقف مستنيه، اتأخر، كل ما أرجع لهم يقولوا: ما ترجعش من غيره دا بواب رئيس القسم، قولتلهم: ما جاش، كلموا رئيس القسم قالهم: إزاي؟ دا أكيد موجود، هو اسمه مخيمر غفير السيد، روح نادي عليه، مال عليَّ النائب ونبهني أن اسم رئيس القسم هو الأستاذ الدكتور السيد، وأنه يخشى أن يكون غفير السيد هي وظيفة وليست اسما؛ خوفا من الخلط والخطأ. وقفت أمام المستشفى أنادي:

ـ العم المحترم مخيمر غفير الأستاذ الدكتور السيد.

ساعة بانادي وما حدش بيرد عليَّ، رجعت قلتلهم: كلموا الباشا، قالهم إن سَمعه تقيل، قالولي: اكتب اسمه على يافطة وخدها، رجعت تاني أستناه، ما فيش، كلموه قالهم إنه ما بيعرفش يقرا. أخذت صورة رئيس القسم المعلقة على الحائط ورفعتها زي رجالة الانتخابات، والحمد لله جالي الراجل جري يسألني:

ـ هوَّ إنت الواد الامتياز؟

طبعا كنت هاتعصب بس ما عرفش إزاي رديت عليه بمنتهى الأدب:

ـ هو حضرتك البيه البواب بتاع الباشا رئيس القسم؟

هز رأسه:

ـ أيوه يا بني.

ـ اتفضل يا سعادة البيه.

ماقدرتش أقاوم كتير فسألته:

ـ هو إيه حكاية الواد الامتياز دية؟

ـ الباشا قال لي: روح المستشفى وهابعتلك واد من بتوع الامتياز يلف معاك عشان ما تتبهدلش، عشان كده شايفك بتتحنجل من الصبح، بس لقيت شكلك ابن ناس ولابس بالطو قلت: مش معقول يكون دا واد من بتوع الامتياز، آني بصراحة كنت بادور على عيل شبه الواد بتاع أنابيب البوتاجاز كده، مش بيه ملو هدومه، هو إنت الواد بتاع الامتياز؟

ـ طبعا لأ، أنا دكتور.

ـ أمال بتاع الامتياز فين؟

ـ وقعت على رجله الأنبوبة وهو بيركِّبها يا حاج.

المصيبة يا عشمان يا بني إني لما رحت قسم الجراحة كشفوا عليَّه وقالولي إنه مش مطاهر وزي الفل. هز رأسه وخبط في الأرض وقالهم:

ـ آني كشفت وقالولي إني محتاج طهارة، ومش هارجع أرفع راسي تاني غير لما نشيل الجلد الزيادة.

سأله دكتور الجراحة:

ـ ومين اللي كشف عليك؟

ـ حلاق الصحة ف بلدنا، وقلت للدكتور السيد قال لي: أنا هاتصرف، إنتو مش عارفين آني مين ولّا إيه؟

رجعت تاني على القسم، قالوا لي: رئيس القسم قال إنه محتاج يطاهر يبقى لازم يطاهر. قولتلهم: إنتو قسم نسا وولادة، ودكاترة الجراحة قالوا: لأ يبقى لأ، ووقفت أعيط وأخبط برجليَّ ف الأرض، قولتلهم: حرام عليكو أنا مش جاي أشتغل خدام، أنا بقالي ست شهور امتياز وما اتعلمتش حاجة، ولا حتى ضرب الحقن، هو إنتو جايبيني تعلموني المشي؟

ـ وبعدين؟

ـ كلموا رئيس القسم قال لهم: أنا لما أقول يطاهر يبقى يطاهر، اتصرفوا. جه واحد منهم قعد يحايلني، قال لي: يا ابني إحنا كلنا هنا ليه؟ مش عشان نخدم؟ هي دية الضريبة وردّ الجميل!

سألته:

ـ هو أنا يعني ما ينفعش أخدم البلد غير بالبهدلة دية؟

ـ مين يا ابني جاب سيرة البلد؟ إحنا هنا عشان نخدم رئيس القسم، وإنت لسة شاب والمستقبل قدامك طويل، وبعدين ده راجل قد أبوك. عموما بص إنت لو عرفت تتصرف في العيان ده

أنا هشغلك معايا الست شهور اللي جايين وأعلمك بنفسي، إنت عاوز تاخد نسا وولادة، صح؟

ـ نفسي.

ـ خلاص، بس لو رجعت بيه تاني هاخرب بيتك.

رحت راجع بيه على قسم الجراحة وأنا باعيط من الوجع اللي في رجلي ومن الخوف على بيتي اللي هيخربوه، شافني واحد من زمايلي، حكيت له على اللي حصل، قال لي: عليك وعلى الدكتور نصحي اللئيم هيحلهالك. رحت للدكتور نصحي، طبطب عليَّ وقال لي: ما تزعلش أنا هتصرف.

ـ وطاهره؟

ـ قالهم: سيبوني، وقص ثلاثة سَنْتِي.

ـ منين؟

ـ هيكون منين؟

ـ وبعدين؟ ما خفتش ليقول للباشا رئيس القسم؟

ـ خفت طبعا. وقلت للدكتور نصحي، قال لي: ما تخافش يا عبيط، زيه زي كل رجالة بلدنا، هو ممكن يروح يشتكي إن عنده حتة زيادة بس لا يمكن يشتكي إن عنده حتة ناقصة!

ولادة قيصرية

جلست مع الدكتور مطحون ما يقرب من ثلاث ساعات كاملة. المختصر المفيد الذي فهمته منه أن كل يوم فيه اللي أمرّ منه، فطبعا بعد ذلك اليوم الشهير لا علموه ولا عبروه، وذهب إلى المدرس صاحب وعد تعليمه فقال له وهو يضحك:

ـ كمِّل اللبس والخدمة لغاية ما السنة تخلص.

وبمجرد انتهاء السنة قرر الدكتور مطحون التخصص في مجال نساء وتوليد، وبدأ يحضر في قسم النساء بصفة ودية، وسأل عن الدكاترة الطيبين ليعلموه «لله ف لله»، كاد قلبه يقف فرحا عندما عرف أن هناك اثنين من أساتذة النساء في الجامعة يقدمان خدمة التعليم المجاني للطلبة، وأنهما متفرغان للتعليم فقط. فلا عندهم عيادات ولا شغالين في مستشفيات غير مستشفى الجامعة. المهم إنه لزق لهم، ليل ونهار، وظهرت ملامح عبقريته الطبية (التي لم تظهر طول سنين الدراسة لأسباب مجهولة). حتى إن واحدا منهم أعلن صراحة أن «الواد ده هيكون عبقري في عالم الطب الحديث».

ونصحه بالسفر إلى الخارج بسرعة، معتمدا على خبرته في الحياة، وقال له:

- يا بني الدكتور مجدي يعقوب لو مكانش ساب البلد زمان كان قعد سنين دايخ بين المستشفيات وآخر أحلامه إنه يلاقي حكيمة عمليات بتعرف تعد الفوط والإبر عشان ما ينسوش حاجة في بطن العيانة. والدكتور أحمد زويل فلت وإلا كان زمانه علق شهادة دكتوراه العلوم على الحيط وراح دوَّر على مَدرسة أمريكية عشان يدرس فيها وياخد له تمنتلاف تسعتلاف جنيه في الشهر.

واقتنع الدكتور مطحون بالنظرية، وقدَّم على شهادة المعادلة الأمريكية، بعد شهرين بس من تخرجه، والمفاجأة التي هزت العالم والجميع، حامد مطحون المطحون هو الثالث على مستوى العالم في المعادلة الأمريكيه، يعني من الممكن أن يسافر إلى أمريكا ويشتغل في أحسن مستشفى هناك.

وبالفعل جاءت الدعوة من جامعة محترمة، لكن كان قد نسي قدره (اللي أنا نفسي فيه) وهو أنه خُلق ليلبس ويخدم، فقد جاء ميعاد دخول الجيش، ووقع عليه الاختيار ليخدم في القوات المسلحة ضابط احتياط، رغم أنه كان رفيعا كالسيجارة، ويلبس نظارة غامقة كعب كوباية؛ غالبا لهذا في كشف الهيئة جعلوه عسكريّا على مضض؛ ليلبس الكاكي أو الزيتي بعد أن لبس الأبيض.

ولأن مطحون رجل محترم، فقد أقنع نفسه أن خدمة البلد حق علينا كلنا، وأن البلد أهم وأحق بالتأكيد من رئيس القسم (اللي ممرمط وراه طابور من الدكاترة). كما أن مستشفيات الجيش رائعة وهو يحمل معلومات لا بأس بها فيما يخص موضوع النساء والتوليد بالذات.

المشكلة لم تكن في مركز التدريب والصول والعساكر العادة الأقدم منه «دا جيش»، المشكلة أن توزيعه جاء بعيدا عن كل المستشفيات التي تمنى أن يذهب إليها،عند حدود السودان، في كتيبة حرس حدود، وفي منطقة خالية من أي شيء. لا توجد هناك سوى ثلاثة ألوان فقط: البني والأصفر والبيج، لون الرمال والخيام والملابس المموهة التي يرتديها الجنود والضباط، حتى الطعام: فول بنّي ولحمة بنّي ومكرونة بنّي. أو فراخ صفراء وجبنة بيضاء اسمًا فقط ولكنها صفراء في الحقيقة.

عندما كان يحاول تغيير اللون، لم يكن أمامه سوى النظر إلى ملابس الفسحة الزيتي أو الجزء الأحمر من علم مصر.

لم يكن الدكتور مطحون هو الطبيب الوحيد في الكتيبة، كان معه اثنان آخران، ما يجمع بينهم أنهم «من غير ضهر»، في أول يوم قابلهم صول كثيف الشارب أجش الصوت بعد أن انتظروه ساعتين.

نظر إليهم في امتعاض:

ـ تلات دكاترة، هاعمل بيهم إيه دول؟

تحرك الأمل في داخل مطحون على أساس أنه سيطلب منهم رعاية الكتيبة طبيًا بالتبادل، لكنه سألهم:

ـ كل واحد فيكو يقول لي تخصصه من غير فزلكة، مش عاوز كلام صعب.

أجاب أول واحد:

ـ أنا تخصصي سمعيات.

ـ أهو بدأنا من أولها، يعني إيه يا أخويا؟

ـ يعني باساعد الناس اللي ما بتسمعش عشان تسمع يافندم.

ـ كويس، وأنت؟

ـ جراحة يافندم.

ـ سهلة دية، وأنت؟

ـ نسا وولادة وحمل وكده يافندم.

ـ هايل ياولاد، إنتو مقسمين نفسكو، بتاع الجراحة والعمليات يمسك عيادة الوحدة، وبتاع السمع ده هيمسك أمن الوحدة عشان العساكر اللي معاه لازم تسمع دبة النملة. وبتاع الحمل هيمسك الحملة.

ـ الحملة!

ـ أيوه يا ابني، العربيات والمركبات وخلافه، ما هي العربيات دي بتشيل العساكر جواها زي الست ما بتشيل العيل في بطنها بالضبط.

العام الطويل الذي قضاه مطحون في تلك الكتيبة كان كفيلا بأن ينسى الأشياء القليلة التي تدرب عليها في أثناء الامتياز، وضاعت عليه الوظيفة الأمريكية بالتقادم، ولم تعد شهادة المعادلة صالحة.

الفرصة الوحيدة التي جاءت له لممارسة الطب كانت في أثناء مروره أمام الكتيبة بالصدفة وسط جولة الحراسة، عندما رأى امرأة تصرخ وتولول وهي ترى معزتها تتلوى من آلام المخاض على غير المعتاد. لم يستطع أن يقاوم واجب المهنة وقَسَم أبي قراط. اكتشف أن الولادة متعسرة، وأن الجدي القادم في وضع مستعرض. أخرج حقيبة أدواته وأجرى لها ولادة قيصرية قامت منها بالسلامة، بعد يومين من سعادة المرأة، التي اتضح أنها من عائلة شيخ القبيلة، أطلقت على الجدي المولود «مطحون» على اسم الطبيب. والحقيقة أنه اشتهر بعدها في القبيلة والقبائل المجاورة، وقام بدوره بتوعيتهم عن أهمية متابعة الحمل من أول يوم، وكان يضع الكاميرا الديجيتال على بطن الجدي على أساس أنها جهاز سونار، وكان يأخذ أجره في صورة عيش وفطير وتمر وعسل. وامتلأت القبائل باسمه، فمعظم الحمير والمعيز والعجول التي ولدت على يديه حملت اسمه، وكان هذا يمنحه

شيئا من الراحة، إلا أن هذا المجد لم يستمر طويلا عندما سرت شائعة بين البدو أنه ليس طبيبا أمينا، وأنه غالبا ما «يستسهل» ويولِّد قيصرية حتى لو الحالة أبسط من ذلك.

بنهاية أعوام الجيش وجد مطحون نفسه عند نقطة الصفر، وجاء توزيعه على وحدة صحية في الجيزة، بمرتب خمسمائة جنيه. لم يجد ما يكفيه ليفكر في الماجستير والدكتوراه، كل ما أصبح يشغله هو لعبة مرتب التكليف، وهي لعبة أصعب كثيرا من «السودوكو». فالمطلوب منه أن يوزع الجنيهات التي يحصل عليها على البقال والجزار والكهرباء والمواصلات وأمه المريضة، ودائما ما كان يخسر.

المهم أنني حكيت لأبي حكاية الدكتور مطحون، وأعلنت عن ترددي في الدخول إلى كلية الطب، إلا أن أبي ـ كما شرحت لكم قبل ذلك، مثله مثل آلاف الآباء في مصر ـ بخبرته شرح لي أن هذا الرجل كذاب ولا يريد أحدا من أولاد المنطقة يصبح طبيبا مثله. عندما قلت لأبي إن ظروف الرجل بادية عليه وديونه معروفة في المنطقة، أكد لي أنني أحسن منه وسأصبح طبيبا شهيرا «مش زي الراجل الخايب ده».

القادمون من الخلف

من أول يوم قررت أن أكون طبيبا على حق. أصر أبي على إرسال ملابسي إلى الـ«دراي كلين» في سابقة تسجل في تاريخ أسرتنا، وقام بنفسه ليلمّع حذائي ويلقي عليَّ نظرة فخر قبل أن أذهب إلى الكلية في أول أيام الدراسة في جنة الكليات.

الكلية كبيرة والمدرجات ضخمة، والطلبة لهم طابع خاص. بنات أحلى بكثير من داليا جارتنا والتي عشت طوال أيام عمري أراها ملكة جمال كل البنات، كان معي شحاتة جاري ابن الشيخ عامر إمام المسجد، يرتدي قميصا أصفر بشعا وبنطلونا بنيّا وحذاء أسود من شعر رأسه المجعد اللي غطاه بالجيل. دخلنا المدرج فانبهرنا بالعدد، ألف وخمسمائة رأس، معظمهم من الثانوية العامة، ثم يأتي أبناء الشهادات المعادلة من الأمريكية والإنجليزية، نهاية بالقادمين من الخلف أو من أعلى.

من الخلف لأن قدراتهم العقلية تساوي أبو خطوة المبروك أو تزيد قليلا؛ لذلك فقد جاءوا بشهادات من دول لا أعرف

إذا كان فيها تعليم من الأصل أم لا. ومن أعلى لأن القبول في جامعة «هيرو» بمثل هذه الشهادات يحتاج إلى قدرات خاصة من أهلهم. فأيامنا لم تكن هناك جامعات الإم تي بي والچي أي چي والإكس واي زد. لكي تصبح طبيبا كان يجب أن تتخرج في كلية الطب الحكومية. اليوم أصبحت هناك كليات طب متقدمة، بلا مستشفيات ولا مرضى. هذه الكليات تتميز بأن نِفسها حلوة، يعني ما بتدققش، المجموع ليس قضيتها الأساسية، المهم أن يكون الطالب صاحب قدرة على التخيل، فهو لن يرى مرضى ولن يذهب إلى الكلية طيلة سنوات الدراسة؛ لذلك فهي تحتاج إلى طالب مبدع يتخيل المريض ويكشف عليه ويسمع قلبه دون أن يراه. وهؤلاء المبدعون بالطبع سيشغلون قريبا كل الأماكن المميزة في المستشفيات الخاصة التي يمتلكها آباؤهم وأصدقاء آبائهم بناء على كفاءة إبداعية خاصة.

كنت في ذلك اليوم أكاد لا أرى شيئا من سعادتي بحصولي على اللقب الذي بحث عنه أبي سنوات عديدة. بينما كان شحاتة أيضا مشغولا جدّا بحصوله على اللقب الذي بحث عنه سنوات طويلة في السر خوفا من أبيه الشيخ عامر، وهو لقب شاب مصاحب. لذلك كانت عيناي تتحركان في قاعة المحاضرات بحركة دائرية، بينما كانت عيناه تتحركان في خطوط متعرجة من أعلى إلى أسفل على أجساد البنات. ولحُسن حظه جاءت جلستنا إلى جوار بنت «زي القمر» مما جعل شحاتة يضطرب

ويرفس بقدميه كالثور الهائج طيلة ساعة المحاضرة، بينما كنت أنا مشغولا بمحاولة فهم ما يقوله الدكتور الذي يتكلم مثل وابور الطحين بغير انقطاع، المهم أنني لم أفهم كلمة واحدة. بمجرد انتهاء المحاضرة التفت شحاتة إلى البنت الجالسة إلى جواره بناء على سيناريو «غالبا قضى طيلة ساعة المحاضرة» يعده، ابتسم في ثقة:

ـ أنا شحاتة عامر. زميلك.

ارتفعت ضحكتها ساخرة:

ـ شحاتة وعامر! طيب الله يسهلك يا سيدي.

اكتسى وجه شحاتة الأسمر باللون النبيتي. رغم أنني تعاطفت معه فإنني رأيت أنه بالفعل كان يشحت منها نظرة أو ابتسامة أو ما تجود به نفسها.

بعد أول أسبوع في كلية الطب جامعة «هيرو» «المجانية» تخلو قاعات المحاضرات تماما، ولا تبقى فيها إلا قلة مندسة من الطلبة الكادحين والمجاهدين، يمكنك أن تميزهم تماما بملابس كل واحد منهم والتي لا تتغير طيلة العام، فمثلا محمد أبو بلوفر بني، وشاهين أبو چاكيت كحلي، ومنى ذات الفستان المنفوش.

هؤلاء لا يمكنهم الانضمام إلى النظام الحقيقي المعمول به في الكلية، وهو نظام الدروس الخصوصية. ودكاترة الدروس في الكلية معروفون بالاسم، أرخص درس في جامعة «هيرو»

يكلفك على أقل تقدير أربعة آلاف جنيه سنويًا، شاملا العملي والنظري والورق والخدمة وضريبة المبيعات، وحيث إن أقل عدد من المواد في السنوات الأولى هو أربع مواد طبية أساسية، فالمطلوب من السيد الوالد مبلغ يدور حول العشرين ألف جنيه، هذا المبلغ يتزايد بالطبع بمرور سنوات الدراسة، فكما أنه من غير المعقول أن يتساوى ثمن كيلو اللحم البتلو مع ثمن الكندوز، فلا يتساوى ثمن درس الباطنة مع علم وظائف الأعضاء، ولا الجراحة مع التشريح.

من هنا يمكنك تصنيف الطلبة في الكلية إلى ثلاثة أقسام؛ فهناك من يتعلمون بفلوسهم؛ ومن يتعلمون «على أد فلوسهم»؛ ومن يتعلمون من غير فلوس ممن دخلوا الكلية وهم يضعون نصب أعينهم الشعار البالي «التعليم كالماء والهواء»، ولكي نكون منصفين فلا بد أن نوضح أن التعليم ما زال كالماء والهواء في كلية الطب جامعة «هيرو»، لكن الماء والهواء هما اللذان تغيرا في بلادنا، فمن يُرد أن يشرب ماء نظيفًا لا يصيبه بالفشل الكلوي والبلاوي الأخرى يجب أن يختار طريقة أخرى غير الشرب من الحنفية، فهناك من يشربون المياه المعدنية بمختلف أنواعها ويدفعون يوميًا مبلغًا وقدره من أجل ماء نظيف، وهناك من يشترون فلاتر لتنقية المياه بآلاف الجنيهات لأن هذه الطريقة أوفر، وحتى الفلاتر تقسم إلى ست مراحل أو خمس مراحل وهكذا إلى أن تصل إلى فلتر ماركة النصاب، وهو لا يُنقي الماء

ولا نيلة لكنه يعطيك أنت وأم العيال إحساسًا بأنكم عملتم اللي عليكم. أما من يشربون ماء الحنفية وهم يقنعون أنفسهم بأنهم يحصلون على كوب ماء نظيف فهؤلاء ربنا معاهم ويسترها عليهم إن شاء الله.

كذلك تعليم الطب، إما أن تشتريه في زجاجات (دروس خصوصية)، وإما تشتري فلاتر (مذكرات وسيديهات ومراجعات)، وإما تشرب من الحنفية؛ أي تعتمد على التعليم الجامعي المتاح، مع ارتفاع احتمالات الفشل الكلوي، قصدي الفشل الطبي.

أما الهواء فقد أصبح غائبا عن بلادنا في الصيف ويحتاج منك إلى تكييف لكيلا تموت فطسانا من الحر، وبنفس النظرية ستختار حسب إمكاناتك بين تكييف مركزي للبيت (دروس في جميع المواد) أو تكييف غرفتين أو غرفة واحدة؛ أي ما يعادل درسًا أو درسين، أو شراء مروحة فريش تجلس أمامها أنت والعيال بملابسكم الداخلية (المراجعات النهائية بعد ما تكون خلاص قلعت)، أو تتبع الخطة الأخيرة والتي تقضي بأن تجلس أمام شباك لا يدخل لك منه سوى الناموس (محاضرات الكلية). وتمسح عرقك الذي يسيل منك أنهارا شارحا لكل من في البيت أن التكييف يؤدي إلى أمراض الجهاز التنفسي، أو أن بلدنا حلوة يا ولاد ومش محتاجة تكييفات.

إذا حسبت على أقل تقدير ما يصرفه الطلبة الذين يملكون

حق اختيار طريقة مناسبة للتعليم «بفلوسهم» فستجد أنهم ينفقون مبلغا لا يقل عن المائة وخمسين ألف جنيه في السنوات الست. أما من يملكون حق اختيار مادتين كل عام ليتعلموهما وربنا يسهل في الباقي (هذا والحقيقة أن الدروس في كلية الطب الموقرة ليست خصوصية ولا حاجة؛ فالمجموعة تصل إلى ما يقرب من مائة طالب يتراصون متجاورين في شقق مجاورة للكلية يسميها أصحابها مراكز. بعضهم يطلب منك وأنت داخل خمسة جنيهات (بدل كرسي)، وبعضهم من ذوي القلوب الرحيمة يعطيك الكرسي مجانا ويكتفي بما يلهفه من الدكتور الذي لهف من الطالب مبلغا وقدره لكي يمنحه حقّا مسلوبا.

المهم أنني قررت في البداية أن أستكمل حضور المحاضرات إشفاقا على أبي رغم أنني أعرف أن «على قلبه أدكده» من الدروس التي يحصدها بدوره من طلبة المدارس، ومن فلوس علاج المغفلين. لكني بعد أسبوعين فوجئت أنني كلما بدأت اعتدتُ أسلوب أحد الدكاترة المحاضرين بعد مجهود مضنٍ، وجدته تغير بآخر قد يكون أفضل منه أو أسوأ، ولكن في جميع الحالات له أسلوب مختلف، أحاول أن أتأقلم معه، وهووووب، أجده تغير بواحد آخر.

قررت نهائيّا أن أتجه للدروس الخصوصية بعد أن نزل لنا في المحاضرات الدكتور زكي الأهتم والذي تزامنت محاضراته مع امتحانات نصف العام؛ حيث كان يشرح لنا جزءا من جسم

الإنسان يسمى بالإنجليزية «التشتش»، سألت كل من حولي أين يوجد «التشتش» في جسم الإنسان فلم يعطني أيّ منهم جوابا شافيا؛ فواحد يقول لي إنه جزء من المخ مسئول عن الإحساس بالسخونة بدليل أن وضع شيء ساخن على بارد بيعمل تش. والثاني أخبرني أنه المعدة والتي ينزل فيها الأكل «بيتش».

أما منى أم فستان منفوش فقد ضحكت بخلاعة لا تناسب ملامحها وضربتني على كتفي وهي تقول: يا قليل الأدب. المهم أنني استجمعت شجاعتي وسألت الدكتور زكي فأجابني بابتسامة ساخرة: ما تعرفش التشتش يا عديم التشتش؟ إنتو جايين منين؟ التشتش اللي هية الخَشية يا جاهل، أُحرجت أن أستوضح منه أين يوجد عضو الخشية في جسم الإنسان، وهل المقصود به خشية الخالق أم خشية الامتحانات والدكاترة، أم كل مشاعر الخوف. المصيبة أنني دخلت الامتحانات لأجد الدكتور يسألني عن تشريح جزء ما اسمه «التستس»، ظننت أنه ألدغ أو أنه ينطقها باللكنة الإنجليزية لا الأمريكية. فهذه مصيبة أخرى في كلية الطب جامعة «هيرو»، كل دكتور ينطق كلمة على مزاجه ويقول: «أصل دية اللكنة الأمريكية»، «لأ دية اللكنة الإنجليزية»، والطالب عليه أن يعرف مزاج كل دكتور محترم إيه في اللكنات والنطق ويريحه، المهم أنني بذكاء فهمت أنه يعني التشتش لا التستس، وأكدت له أن التشتش هو مركز الخشية. نظر إليَّ وهو يفكر:

عندك حق، التستس بتخوف، الرجالة يخافوا عليها والستات يخافوا منها.

شعرت بالثقة وبدأت أُعدِّد أنواع ودرجات الخوف والخشية، ضربني بالشلوت ثم طردني من اللجنة وهو يصيح غاضبا:

ـ «The testis» يا عديم التستس يعني الخصية يا حمار، ولَّا أقولك يا حمارة؟

أكثر ما غاظني أن الدكتور زكي الأهتم كان جالسا إلى جواره يضرب كَفًّا بكف وهو يسأل بسخرية:

ـ هي العيال دي ما دخلتش مدارس ولا إيه؟ ما تزعلش نفسك يادكتور دا بينه طالب مخشي.

وانطلقت ضحكاته تغيظني وأنا أغادر غرفة الامتحانات.

يومها رجعت لأبي مُقرًّا ومصرًّا على أنني لا بد أن آخذ دروسًا خصوصية زي البني آدمين، عندما عرف أسعارها تردد قليلا وحاول أن يقنعني أن الدروس للخائبين فقط وليست لطالب متفوق مثلي، لكن عندما هددته بأنني سأترك كلية الطب إذا أصر على الرفض، هز رأسه مستسلما وهو يلعن أبو الدروس واللي بيدوها واللي بياخدوها، ثم ارتدى ملابسه استعدادًا للذهاب إلى دروسه الخصوصية.

السَّلَطة

بعد شهر واحد كنت واقفا أنظر من نافذة مدرج الدور الثالث، شعرت بأنني أنظر من أعلى إلى مائدة بوفيه مفتوح محترمة من تلك التي كنت أراها فقط في حفلات الزفاف، طلبة الكلية قسموا إلى أصناف وأشكال متباينة. ألح عليَّ هاجس بأن أقسم الشِّلل إلى أطباق.

هناك من يشبهون طبق السلاطة الخضراء بألوانه الزاهية المتنافرة، وهي شلة ميمي وتوتو وزيزي وكاكا، وهم من أبناء رجال الأعمال وأصحاب المال والنفوذ. وشلة المنتقبات المتشحات بالسواد ذكّرنني من أعلى بأطباق الزيتون الأسود. وشلة من الشباب القادم من قاع المجتمع والذين يحاولون أن يتظاهروا بأنهم شباب روش وخفيف ومقطّع السمكة وديلها، وهؤلاء أسميتهم شلة البيض المسلوق، وشلة قليلة نسبيًا في كلية الطب ولكنها متميزة للغاية، فهي تقدم خدماتها لجميع الدفعات مجانا غالبًا، فهن من الهاويات ولسن من المحترفات، وهي شلة اللبن الرايب والتي أرتعد كلما رأيتهن من فوق المدرج

أو من تحته بعد أن علمني شحاتة ـ الله يسامحه ـ أن ألقي أقلامي وكراساتي أسفل البنش لأحضرها وأتفرج، والتقيت بمعظم أصدقائي من الدفعة تقريبا في ذلك الموقف العظيم.

وهناك من يشبهون طبق سلاطة الطحينة أو البابا غنوج، ألوان هادئة وتجانس واضح مثل فريق الأهلي المرعب، وهؤلاء من أمثال ابن الدكتور فوزي والدكتورة فوزية، وابن الدكتور حمدي والدكتورة حمدية وابن الدكتور عبد القوي والدكتورة قوية... إلخ، وبعد سنوات تزوج معظمهم ببعض لكن بعد أن أجروا بعض التباديل والتوافيق في أثناء الدراسة. والحقيقة أنهم أحرار، فقد كان لديهم فائض من الوقت لم يره أحد من الطلبة سواهم، فهم بالطبع لا يحضرون المحاضرات، ولا يذهبون إلى الدروس، بل المعتاد أن الدروس هي من تذهب إليهم في بيتهم، ويقال ـ والعهدة على الراوي ـ إن الدروس التي تقام في بيوت الأساتذة الكبار أوي (مش أي أستاذ والسلام)، تكون دروسا مباركة ويحفها التوفيق، فتغشاهم الملائكة وتحفهم الرحمة وتنزل عليهم أسئلة الامتحان قبل الامتحان بيومين أو ليلة الامتحان غالبا «علشان البركة ما تتسربش».

أما بين كل هؤلاء فهناك أفراد يمشون بلا هوية ولا شللية، يشغلهم ما يحلمون به عن كل هذه المجموعات، فقد يكون ابن أستاذ يتمنى أن يصبح دكتورا كويس (مش ابن بابا)، فهو يذاكر ليل نهار، وقد تكون منتقبة لكنها تتعامل مع الكل بهدوء واحترام،

وشاب غلبان مش عاوز يعمل رِوِش لكنه عاوز يتعلم، وهؤلاء لا يمكن رؤيتهم بسهولة وسط زحام الشلل في الكلية، أسميت هذه الشلة مجموعة الماء، لا لون لا طعم لا رائحة، وصنفت نفسي منهم.

والحقيقة أن التقسيم في الكلية نظام معمول به ومبالغ فيه؛ إسلاميون (جماعات ومستقلون)، ومسلمون عادة ومنطلقون تحت شعار الحساب يوم الحساب، مسيحيون كنائسيون، ومسيحيون مستقلون (غير ملتزمين بشلة الكنيسة)، شلة الأندية الكبيرة وشلة الملاعب وشلة الرحلات والأسر إلى جانب شلة المدينة الجامعية. ويمتد التقسيم من الطلبة إلى الأقسام وهيئة التدريس؛ فقسم التشريح مثلا يرأسه هذه الدورة الدكتور چورچ، والسكرتيرات سيصبحن ماري وكارولين ومادلين، والساعي عم جرجس، في نصف العام انتقل الدكتور چورچ إلى المعاش، وجاء الدكتور عبد التواب.أصبحت السكرتيرات هدى ومروة وفاطمة، والساعي عم محمود.بدأ فأر التعصب الديني يلعب في عِبي، إلا أن الدكتور عبد التواب توفي بعد شهرين وجاء الدكتور علي الخفيف، فوجدت السكرتيرات أصبحن زيزي ونونو وتاتي، والساعي طنط عزيزة زمبلك.

لم أكن أدري أين تذهب الأطقم القديمة، ظننت أن كل رئيس قسم يخرج إلى المعاش برجاله وحريمه، بقي عندي تساؤل: طيب، ومن يقابل وجهًا كريمًا فأين يذهب طاقمه؟ بياخدهم

معاه في تربته ولّا إيه؟ عرفت بعد سنوات طويلة أنهم يظلون في القسم، لكنَّ لكل قسم نجوما من العاملين على المستويات كافة؛ لذلك فاللعب في المهام الوظيفية والمراكز. فالنجوم والنجمات من الوظائف الإدارية أو الأساتذة والأساتذة المساعدين أو حتى السكرتارية هم المقربون من السيد رئيس القسم ممن يلعبون لصالحه مثل ماري التي كانت دراع الدكتور جورج اليمين. وهدى التي كانت دراع عبد التواب اليمين. وزيزي الممسكة بدراع الدكتور علي الخفيف اليمين، والتي يقولون إنها دائما ما كانت تلعب «في» صالحه.

الشاهد أن حكاية التعصب الديني والتفرقة العنصرية بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب في تسعين في المائة من الحالات، الحكاية حكاية مزاج، أما ما نراه جميعنا من تجمعات غالبا ما تكون من نفس الديانة فأنا كنت أرى أن سببها هو العِشرة والحرية اللغوية، فمثلا عندما نذهب إلى الكنيسة معًا ورحلات الكنيسة وأعياد الكنيسة يمكن أن نصبح أقرب لبعض من صديق مسلم، والعكس صحيح، كما أن الكلمات المعتادة لا تقابل بنظرة دهشة، فبسم الله معتادة من الجميع في هذه الشلة، وبسم الصليب معتادة من الجميع في الشلة الأخرى، الوحيد الذي كان كسرا لهذه القاعدة كان صديقي جرجس والذي كنت أعرفه من أول يوم تعليم، وأصبحنا صديقيْن وكان من شلتنا، إلا أنه بدأ في الابتعاد عني تماما في العام الثالث من الكلية، همهم أصدقائي وغمغموا

وهم يخبروني أن صديقي المسيحي باعني وانضم لأصدقائه، وأنهم حذروني أن ما فيهمش خير، المهم أنني ذهبت لأسأله عن سبب ابتعاده عنا، شرحت له أن الدين لله والوطن للجميع، وأن العِشرة ماتهونش إلا على ابن الحرام... أشار لي بيده مقاطعا:

ـ هششششششششش، بكرة تقابلني في الكلية.

قابلته في الكلية صباحًا فمشى إلى جواري صامتا، سألته عما يريد مني فأجابني بنفس اليد:

ـ هششششششششش.

ثم أخذني إلى شلته الجديدة ليُعرفني بهم. توقفت أحملق كالمذهول في بدر البدور البيضاء التى قال لي إن اسمها مها، وإنها أصبحت «صاحبته»؛ لذلك لم يعد يقضي وقته معنا، نظرت في عينها وبدأت ألعن أبا الشلة التي أعرفها واحدا واحدا، وبمجرد أن رأيت مونيكا أخت مها الصغيرة، وابتسمت لي ابتسامة لطيفة، هجرت أنا أيضا شلتي القديمة، وأخبرتهم بأنني سأنضم لشلة صديق عمري، وأن برضه الوطن للجميع يا زبالة يا ولاد الـ... إلا أن شلة جرجس كرشوني من بينهم بمجرد أن لاحظوا استلطافًا وحكاية ستبدأ بيني وبين مونيكا، وأمسكت مونيكا يدي وهي تبكي وتقول لي: باحبك بس ما ينفعش، فعدت لأصحابي أؤكد لهم أنهم كانوا على حق، وأن الوطن ليس للجميع، وأنهم عنصريون ويسبون في الإسلام والمسلمين (مع إنه ما حصلش)،

لكن الحقيقة التي أعرفها ومتأكد منها، أن في داخل كل مصري مسلم أو مسيحي شعارًا واحدًا: «الوطن للجميع ماشي، بس بنات ديني مش للجميع».

أما كل ما تسمعونه عن الخلل والعنصرية الدينية في الكلية في الوظائف والامتحانات (رغم أنه موجود عند بعض الأشخاص والأقسام)، فهو غالبا من حوادث مشابهة لما حكيت لكم، وكله بيقول اللي يطلعه زي الشعرة من العجينة، وقد حضرت أحد امتحانات العملي وإلى جواري طالب مسيحي كان اسمه وسيم، رأيته ينفخ المريض عشرين جنيها ليخبره عن مرضه. أخبره الرجل ببساطة أنه مريض بالقلب، بعد دقائق جاء الدكتور الممتحن وسأله بابتسامة واسعة:

ـ العيان ده عنده إيه؟

ـ القلب يا دكتور.

ـ نبضه كام؟

ـ سامحني يا دكتور ماعاييش ساعة.

ـ سمعت قلبه؟

ـ لأ أصلي ماعاييش سماعة، صدقني أول مرة أنساها يا دكتور.

طبعا خرج من اللجنة مطرودا بالصفر المتين. المهم أنني

خرجت من اللجنة بعده بدقائق لأسمعه يحكي عن الدكتور الذي أخذ يسخر من اسمه ومن دينه ومن الصليب الذي يرتديه وبعدها إداله صفر وطرده، كنت أريد أن أصفعه وأقول له: «يا كداب»، لكن الحقيقة أنا لم أجرؤ على ذلك لأني بدأت أحكي لأصدقائي عن الدكتور المفتري اللي بدأ الامتحان بسؤالي عن ديانتي، وسخر من اسمي وديني والدعاء الذي كنت أقوله، وبعدها إداني صفر وطردني، الحقيقة أنا كمان ماكانش معايا ساعة ولا سماعة، على فكرة، وأنا والأخ وسيم دخلنا على نفس المريض وامتحنا عند نفس الدكتور، وكان اسمه محسن زكي، ولا أنا ولا وسيم كنا عارفين هو مسلم ولا مسيحي.

الخبيث والحميد

لا أظن أنني سأنسى طيلة حياتي امتحانات الشفوي في جامعة «هيرو» الموقرة، وكل الأطباء يعرفون أن الممتحنين يقسمون نفس تقسيم الأورام، فكما أن هناك أورامًا حميدة وأخرى خبيثة، هناك ممتحن حميد وآخر خبيث، والممتحن الخبيث هو من ينقض عليك كالورم السرطاني، ولا يترك الطالب إلا بعد أن يقضي عليه نفسيًا وتقييميًا. ومن الحكمة التي يعرفها الأذكياء من طلبة الطب أن تريح هذا الخبيث ولا تحاول أن تجيب عن أسئلته لأنك تستفزه كلما أجبت أكثر، عندها سيبدأ في سؤالك عن المستحيل، مثل عدد شعر الرأس وحجم كبد رمسيس الثاني، وإذا «إتلامض» الطالب أكثر من ذلك فمن الممكن أن يسأله عن الحالة الصحية لجنود الحملة الفرنسية على مصر وتاريخ وفاة كل منهم، وفي النهاية الدرجة محسومة، وهي غالبا ما تكون الحد الأدنى للنجاح أو تزيد قليلا، وهذا ليس نابعا من الطيبة؛ فرسوب الطالب معناه أنه سيظهر مرة أخرى في العام القادم، أما نجاحه بدرجة مقبول فيعني التخلص منه إلى الأبد لأنه لا يسمح

لحاملي المقبول بتحضير دراسات عليا وبالتالي يصبح كالبيت الوقف، مجرد ممارس عام بدون تخصص.

أما الممتحن الحميد فهو ظالم من نوع آخر، يسألك عن اسمك رباعيّا واسم الأب ثلاثيّا واسم الجد ثنائيّا، بهذا تكون أجبت عن ثلاثة أسئلة وتستحق الدرجة النهائية، أما إذا فشلت في إجابة لأنك متخلف عقليّا، فسيطلب منك إحضار ثلاثة أكياس شيبسي أو بيرسيل ليمنحك الدرجة النهائية، وهؤلاء الممتحنون يفعلون ذلك لسبب من اثنين؛ فبعضهم لا يرى قيمة لامتحانات الطب ونظام التقييم الهيروي؛ لذلك يعطي الكل نفس الدرجة ويقول برضا تام:

ـ النظري سيحدد ترتيبهم.

أما السبب الثاني فهو أنهم يرون نظام امتحانات أبناء الأساتذة؛ لذا يرون أن العدل يقتضي مساواة ولاد الشعب، بأولاد الدكاترة.

أما الدكاترة العادلون والمنطقيون في امتحانات الشفوي فهم قلة مندسة في جامعة «هيرو»، فالعدل والمنطق يقتضيان محاسبة الطالب على ما تقدمه له من علم؛ تطبيقا لمبدأ علمي مهم، وهو «اطبخي يا جارية كلِّف يا سيدي»، وبالتالي تقييم الطلبة في جامعة العلم فيها مصدره الشقق المفروشة (أعني شقق الدروس. ما تخليش دماغك تروح لبعيد) يصبح في حد ذاته ظلما للجميع.

مع أول امتحان شفوي تلقيت الوصايا من أساتذة الدروس،

والكلام الذي سمعته جعلني أحتار في تحديد ما إذا كنت ذاهبًا لامتحان أم لعروسة:

• لا بد أن ترتدي بدلة وكرافتة مناسبة لتبدو طبيبا (كلام معقول). أما الكلام غير المعقول فهو أن البدلة لا يجب أن تكون شديدة الأناقة لأن ذلك يمكن أن يعرضك للحقد الطبقي من الدكاترة اللي ما بيشتغلوش برة الجامعة، أو يعرضك للغيرة القاتلة من الدكاترة المتابعين لخطوط الموضة الحديثة والذين يرون أن الطالب لا يجب أن يكون أكثر أناقة منهم، وفي هاتين الحالتين أنت معرض للبهدلة وقلة القيمة.

• الشَّعر يجب أن يكون وسطًا، لا هو طويل مستفز ولا قصير مستفز أيضا.

• إياك أن تبدو واثقا بنفسك، ولا أن تبدو خائفا مترددا.

• تجنب أن تمسك بميدالية مفاتيح في يدك، لو أن فيها مفاتيح سيارة فقد تدفع الثمن فادحا.

• إياك أن تستهين بمثل هذه النصائح أو تقول مثلما قال سمسم: «بلاش كلام فارغ».

فذلك يمكن أن يعرضك لما تعرَّض له في الامتحان الشهير في اللجنة رقم «١٣» وهي لجنة الدكتور غِلَّاوي أبو ناب، عندما أخذ المفاتيح من يده وأمسك بمفتاح سيارته الأسود الأنيق وبدأ أسئلة الامتحان:

ـ الله، دا مفتاح عربية؟

ابتسم سمسم في ثقة:

ـ أيوه يادكتور.

ـ نوعها إيه يا شاطر؟

ـ بي إم يا دكتور.

ـ ياااه دي أكيد غالية أوي، بابا بيشتغل إيه؟

ـ صاحب مصنع عطور.

قرب الدكتور غِلَّاوي أنفه من سمسم:

ـ آه عشان كده ريحتك حلوة، ومعاك رخصة على كده؟

ـ أيوة يادكتور.

ـ طبعا خدتها من غير امتحان سواقة.

سكت سمسم ولم يجب، بدأ صوت الدكتور غِلَّاوي يعلو غاضبا:

ـ عشان تدوس ولاد الناس الغلابة زي البت فهيمة بنت أختي ما داسها كلب زيك.

تحول صوته إلى صراخ:

ـ وتقف في الإشارة تبص للناس اللي راكبة فوق بعضها في

الأتوبيس من فوق لتحت، وإنت مشغل الكاسيت والتكييف، وآخر روقان، مع إن منهم ناس ممكن يكونوا دكاترة في كلية الطب بقالهم عشرين سنة ومش عارفين يشتروا لنفسهم موتوسيكل.

ـ لا يادكتور.

ـ اخرس، خلينا في الامتحان.

ـ حاضر يا دكتور.

ـ لو عربيتك اتقلبت بيك على الطريق الصحراوي ثلاث مرات، فحدِّد أنواع الإصابات اللي هتحصلك والزمن بين الحادثة ووفاتك.

نظر إليه سمسم في دهشة:

ـ إحنا في امتحان كيمياء يا دكتور!

مد الدكتور يديه إلى خدَّي سمسم وهو يهمس بصوت ثعباني:

ـ آه صحيح، طيب حدد لي نوع التفاعل بين البنزين اللي هيتسرب من خزان العربية وجلدك الأبيض الناعم الحلو ده، مع كتابة معادلة التفاعل.

بالطبع لم تكن لدى سمسم إجابة، أراه الدكتور غِلَّاوي الصفر الذي وضعه بكل تشفٍّ. خرج سمسم يلعن أبو الدكتور والعربية والمفاتيح. كانت مصيبة كبيرة طبعا، ليس بسبب الصفر لكن لأن سيارة سمسم انقلبت به ثلاث مرات وهو عائد في الطريق

الصحراوي إلى بيته في ستة أكتوبر، وزمن الوفاة كان بعد دقائق من الحادث نتيجة التفاعل الحادث بين جلد سمسم والبنزين قبيل احتراق جسده بالكامل، قرر بعدها العميد منع الدكتور غِلَّاوي من الامتحانات؛ لأن سمسم كان هو الطالب الثلاثين خلال عامين ضمن قائمة من ماتوا في حادث سيارة بعد خروجهم من اللجنة رقم «١٣»؛ لجنة الأستاذ الدكتور غِلَّاوي.

قدس الأقداس

أول امتحان شفوي كان مخيفا بالنسبة لي، فلجان الشفوي ألعن من لجان المرور على من تخطى السرعة وقفشه الرادار، والطلبة لهم أرقام ثابتة كالمساجين تماما تلتصق بهم من أول يوم في الكلية إلى آخر يوم. ذهبت في الصباح لأسمع تقسيمة الطلبة على اللجان، ولأعرف حظي، الذي أعرفه جيدا، رماني في سكة مين.

دخلت على السكرتيرة أسألها في خجل:

ـ أنا تسعة وسبعين، هأبقى في أنهي لجنة؟

ـ ماعرفش استنى لما الدكاترة يوصلوا.

تعجبت من فكرة أن اللجان لا توزع إلا في الوقت الضائع، بعد قليل بدأ الممتحنون في التوافد فوقفت السكرتيرة تنادي:

ـ لجنة واحد من رقم واحد إلى رقم ثلاثين.

ابتسمت مندهشا (طيب ما اللجان متوزعة أهيه بالقُرعة والناس شريفة)، تابعت بعد لحظات:

ـ ماعدا سبعة وحداشر عند رئيس القسم، وثلاثة وعشرين عند الدكتورة منى، وثمانية وعشرين عند الدكتور حمدي.

اندهشت من هذه التوزيعة العشوائية، سمعت صوت أحد الطلبة:

ـ الكوسة بدأت.

التفت أسأله، فشرح لي أن الطلبة توزع عشوائيًا بالأرقام تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص، بعدها يبدأ الأساتذة في طلب أصحاب الوساطة تحت شعار «تكافؤ دية تبقى خالتك»، وكلٌّ حسب مزاجه.

أما خلاصة الخلاصة وسادة السادة في الكلية فهؤلاء من يدخلون مباشرة إلى قدس الأقداس، وقدس الأقداس عند الفراعنة هو أقدس منطقة في أي معبد والتي يوجد بها تمثال إله المعبد الأكبر، وبالتأكيد فإن هناك جذورًا فرعونية لدراسة الطب في مصر، والأمر يتطابق في امتحانات الشفوي مع لجنة رئيس القسم التي لا يدخلها إلا أولاد الدكاترة الكبار أو من يساويهم من أبناء الوزراء أو أعضاء مجلس الشعب.

هززت رأسي حزينا على الكوسة التي ملأت البلد، لكن بعد قليل سمعت السكرتيرة تنادي: من ثمانية وسبعين إلى ثمانين عند رئيسة القسم، اندهشت للحظات فأنا لم يكن لي أي واسطة، وبالرغم من ذلك اختارتني السماء لدخول قدس الأقداس.

لعنت الطالب المفتري الذي قال لي إنها كوسة، وأدركت أنها اختارت عينة عشوائية من طلبة الكلية لتعرف المستوى العام للرعية؛ أقصد الطلبة.

دخلت على رئيسة القسم، سيدة تبدو عليها الطيبة والرقة، كانت تمتحن طالبا قبلي وأنا جالس أراقب في قلق. تبدد قلقي تماما وأنا أراها تسأل عرفان ابن الدكتور عارف والذي يسبقني في كشوف الكلية مباشرة. بابتسامة رقيقة، وصوت هادئ:

- إزيك يا عرفان وازي بابا وماما؟

- كلهم بخير يا «طنط».

- رجعتوا من الساحل الشمالي إمتى؟

- بعد ما حضرتك رجعتِ بأسبوعين. وماما باعتة لحضرتك إيصالات الكهربا والمياه اللي دفعتها بعد ما حضرتك سافرتِ.

أخرج من جيبه بعض الإيصالات وأعطاها لها. ابتسمت ووضعتها في جيبها ثم قالت:

- طيب يا سيدي. قولها إن أنا هادفع مصاريف الصيانة لينا وليكو وبعدين الحساب يجمع.

هز رأسه موافقا. اكتسى وجهها بجدية شديدة، أدركت أن الامتحان سيبدأ، مالت تجاهه قليلا وهي تسأل بصوت منخفض:

- تعرف إيه عن تشريح القلب؟

ابتسم عرفان في ثقة، لكن قبل أن يفتح فمه عاجلته الدكتورة فوزية:

ـ استنى يا عرفان، بمناسبة القلب. ما تعرفش محمود السحلاوي ساب منى شطا ليه؟ دول كانوا لايقين على بعض قوي.

بدأ عرفان يجيب إجابات تدل على أنه مُلم بهذا الموضوع تماما، واتضحت لي أشياء لم أكن أعرف عنها أي شيء. فمحمود كان يذهب مع سوزي وديع إلى الديسكو في مارينا، إلى أن شكَّت فيه منى، وأمسكتهما معًا على باب ڤيلَّا العجمي المهجورة منذ سنوات و... و... و... الحقيقة أنني استمتعت كثيرا بالحكاية رغم أنني لا أعرف محمود ولا منى، لكني على الأقل أعرف أسماء العائلات فكلاهما من أسماء العائلات الكبرى في الكلية.

مضت نصف ساعة وهي مدة طويلة على امتحان شفوي بالطبع. نظرت الدكتورة فوزية في ساعتها مندهشة:

ـ ياااه الوقت بيعدي بسرعة معاك يا عرفان. نرجع للامتحان بسرعة بقى، قول لي: القلب موجود عندنا يمين ولا شمال؟

ـ شمال يادكتورة.

ـ برافو ياحبيبي، مع السلامة.

اندهشت عندما وجدتها لا تضيف درجات في الورقة التي أمامها.

التفتت لي وأشارت لأقترب، اقتربت في خطوات متعثرة، طمأنتني ابتسامتها التي لم تغب عن وجهها:

ـ إنت مين بقى يا سيدي؟

ـ أنا عشمان مشتاق الطيب.

ـ أيوه يا ابني، ابن مين يعني؟

ـ ابن مشتاق الطيب.

ـ آآآه، بابا دكتور معانا هنا؟

هززت رأسي نافيا.

ـ أمال إيه؟ ضابط مرور؟ عضو مجلس شعب؟ صاحب العميد؟

تتابعت هزات رأسي نافية:

ـ بابا مدرس في مدرسة ثانوي.

رفعت حاجبيها في استنكار:

ـ أنت جيت هنا إزاي؟

ـ السكرتيرة نادت على رقمي.

ـ يعني إنت مش متوصَّى عليك؟

لم أرد عليها من الخوف. رفعت صوتها حادًّا لتنادي على السكرتيرة.

ـ إنتِ يا زفتة، الواد دا جه هنا إزاي؟

نظرت في الورقة التي بين يديها في قلق، اتضح أن الأسماء مكتوبة في الورقة بين كل رقم والآخر شرطة، ولأن قبلي عرفان عارف وبعدي عهود عاهد، فقد كانت أرقامهما مكتوبة كالآتي ٧٨-٨٠ مما جعل السكرتيرة المسكينة تظن أن المقصود هو من ٧٨ إلى ثمانين، هزت رأسها في أسف:

ـ غلطة يا دكتورة.

ـ مخصوم منك يومين.

أدارت رأسها إليَّ في غضب، وقد تغيرت ملامحها فجأة:

ـ وإنت مذاكر ولا لأ؟

ـ مذاكر يا دكتورة.

اكتسى وجهها بعلامات الشر وهي تسأل:

ـ قول لي الفرق التشريحي بين قلب الإنسان وقلب الضفدعة.

شعرت بالخوف. رغم أنني أعرف الفرق فإنني شعرت أنها بداية امتحان أسود على دماغي ودماغ اللي خلفوني. شعرت بملاك أو شيطان يهمس في أذني بفكرة غريبة ويا صابت يا اتنين عُور.

ـ نفس الفرق بين قلب منى شطا ومروة يا دكتورة.

نظرت إليَّ في دهشة وارتياب:

ـ إنت تعرف منى؟

ـ الحقيقة عرفان ما قالش لحضرتك كل حاجة، البت مروة هي السبب، كانت عينها من محمود وهي اللي زقت عليه سوزي وديع، وكلمت منى عشان تكبس عليهم.

رفعت حاجبيها في حيرة:

ـ مروة مين؟

ـ مروة أم شعر أسود طويل يا دكتورة.

ـ آآآه مروة حجازي، طول عمري مابرتحلهاش ولا بارتاح لمامتها.

ـ مش بأقول لحضرتك قلبها زي قلب الضفدعة.

هزت رأسها موافقة وأمسكت بهاتفها المحمول لتحكي لصديقة ما عن حكاية محمود ومنى، ابتسمت وأنا أسمعها تحكي ما قلته، ولو أن ضميري أنَّبني من المصيبة التي ألصقتها بواحدة لا أعرفها. طالت المكالمة، وكلما مر الوقت اطمأننت إلى أنها لن تجد وقتا كافيا لتسألني عما حدث مع عرفان. توقفت عن الحديث فجأة، أغلقت الهاتف ونظرت إلى ساعتها، وارتفع صوتها مناديا على السكرتيرة:

ـ يا إحسان، دخلي عهود أحسن اتأخرنا قوي. وإنت ياعشمان لازم تفهِّم محمود الحقيقة.

هززت رأسي موافقا:

ـ حاضر.

قمت من مكاني مترددا. فأوقفني صوتها:

ـ إستنى، إنت لسة ما امتحنتش، خديه يا إحسان على لجنة الدكتور مخنوق المفتري، ووصيه عليه.

الأُسَر

نجحت ذلك العام رغم الدرجة السوداء التي منحها لي الدكتور مخنوق. لكن عموما النجاح ليس هو المشكلة الأساسية في جامعة «هيرو»، المهم هو الترتيب، فمستقبلك بالكامل سيتحدد بناء على درجاتك وترتيبك في الكلية، وهل ستبدأ حياتك في مستشفى الجامعة ولا في الغيط طبيبا لوحدة صحية في اللامكان، هناك لن تجد من يعلمك سوى الست حميدة الداية، وعم سوكة حلاق الصحة. المهم أنني انتقلت إلى عام دراسي جديد، لم يعد لديَّ العديد من الأصدقاء، فأبو خطوة المبروك «بيغير عليَّ من أي حد بيفهم»، بينما شحاتة صديق عمري يئس من كثرة ما حاول مع كل بنات الدفعة تقريبا. وجدته بعدها يأتي لي ليعرض عليَّ الانضمام إلى أسرة الأشقاء نحو الهدف، أعجبتني الفكرة جدّا فأنا كنت أحتاج أن أجد هدفا جديدا بعدما بدأت أعرف الخيبة القوية اللي أنا خبتها لمَّا جبت مجموع كبير، لم يكن موضوع الأسر بمختلف اتجاهاتها معقدا وخطيرا كما أصبح الآن، مع ذلك ترددت.

فقال لي شحاتة بثقة:

«هنبقى كوادر».

فتشاءمت قليلا عندما تذكرته وهو يقول لي في أول يوم دراسة:

«هنبقى دكاترة».

لكن قلت لنفسي: خلينا نجرب ياواد ياعشمان.

انضممنا لأسرة الأشقاء والتي تتخذ شعار «وتعاونوا على البر والتقوى». أعترف أنني كنت متوترا في البداية من الدخول في وسطهم بسبب الأفلام، لكني كنت أتمنى أن تصدق الأفلام جزئيًا، فيعرضوا عليَّ الزواج في السر بفتاة أراها لأول مرة ليلة الدخلة واكتشف أنها صاروخ مختبئ خلف طرحة شفافة تغطي ملامحها، ويضعون في حجري حقيبة صغيرة فيها آلاف الدولارات مجهولة المصدر، وطبعا لم أكن أنتوي أن أكون عضوا فعالا.. فقط أستلم البنت الصاروخ والدولارات وأخلع وأنضم إلى برنامج يشبه برنامج حماية الشهود في أمريكا وأغير اسمي وشكلي.

لكن أملي خاب تماما، في البداية لم أعرف هل ضموني إلى قسم الهواة أم أن الطب كما يضيع مستقبل الرياضيين والموهوبين ـ عدا الكتاب لأن الكتابة زي الطب تحب الفضفضة ـ ضيع مستقبل تلك الكوادر الشابة أيضا، لم أجد صواريخ ولا دولارات

ولا حتى كوادر، ثم اكتشفت أنهم مجموعة من الغلابة الذين تشابه حالتهم حال صديقي شحاتة. لا يبحثون عن أي شيء سوى الكينونة والقيمة، في مجتمع الكلية المليء بالأغنياء وأبناء أصحاب المناصب داخل وخارج الكلية. ولأن معظمهم من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، والقليلين منهم من ذوي الحيثيات؛ لذلك فقد اخترعوا العديد من الوسائل لتسهيل الحياة على أنفسهم وعلى أمثالهم من الغلابة الذين لايملكون شيئا. فيوفرون لهم الامتحانات القديمة وأوراق الدروس وشرائط مسجلة للدروس الخصوصية، منهم المتدين فعلا ومنهم اللي مش فاهم أي حاجة وعامل فيها شيخ، مثل الواد أسامة سيف الدين البتار، والذي دخل يوما علينا في المسجد وأخذ يلعن ويسب في منى أم فستان منفوش، ويتحدث عن أن فستانها المنفوش الذي يرتفع أحيانا كاشفا عن ساقيها وعن الحسنة الكبيرة اللي فوق ركبتها الشمال بفعل الهواء أو بفعل منى نفسها عندما تجلس على سلالم الكلية ويعتبرها فضيحة ومنكرًا يستحقان أن نغيرهما بيدنا. ثم بدأ يتحدث عن علاقتها بمحسن وفوزي وسامي وتامر وعمر، وجدها شحاتة فرصة سانحة، وبدأ يتكلم هو أيضا عن ليلى اللي «كانت قالت له: الله يسهلك»، وعلاقتها بواحد من دُفعتنا اسمه عمار، وأنه رآهما يجلسان معًا خلف المدرج في وضع «أستغفر الله العظيم». ولأن لي إخوات بنات أعلنت عن غضبي واعتراضي على الخوض في أعراض البنات، وأن ما يقولونه في المسجد سيحاسبهم عليه الله، وسألت

أسامة: هوَّ عرف منين إن فيه حسنة فوق ركبة منى؟ فصاح فيَّ غاضبا واتهمني بأنني علماني كافر. هبَّ فيه شحاتة قائلا:

ـ لِم نفسك يا أسامة، باين عليك بتفتري على البنت.

حاولت أن أرد مجاملته إلا أنني لم أستطع أن أقاوم. فرددت عليه في حدة:

ـ اخرس إنت ياشحاتة الله يسهلك، إحنا أصلا ماعندناش حد في الدفعة اسمه عمار.

وقمنا نحن الثلاثة غاضبين، تاركين أعضاء أسرة الأشقاء للأبد، يهزون رءوسهم ويستغفرون الله ويواصلون استعداداتهم لخوض انتخابات اتحاد الطلبة التي لم أجد لها أبدا قيمة.

المهم أن كلّا من شحاتة وأسامة أعلن قبل أن يخرج من المسجد أنهما لن يسكتا عن الحق، واتجه كل منهما لتغيير المنكر، وكانت النتيجة أن تلقَّى شحاتة كفّا على وجهه من ليلى ما زالت ذكراها تطارده حتى الآن (على لساني طبعا) بعد أن اتضح أنه قال لها:

ـ مش هتحن على شحاتة بقى يا جميل؟

أما أسامة البتار فقد أجابته منى بنظرة (من اللي هيَّ) وهي تقول:

ـ إخص عليك يا أسامة.

بعدها بدأت بينهما قصة حب طويلة انتهت بالزواج ونحن في سنة الامتياز، المشكلة الوحيدة التي واجهته في الزواج أن منى منذ السنة الثانية وبعد خطبته العصماء في المسجد والتي نشرها هو بنفسه في الدفعة تغير اسمها من أم فستان منفوش إلى منى أم حسنة في فخدها الشمال، وبالطبع لم أنسَ وأنا أبارك له على الزواج أن أنهر أصدقائي الذين طلبوا منه عزومة بالمناسبة السعيدة دية، وقلت لهم إننا لا نريد منه عزومة، وكل ما نريده بعد زواجه هو، الحسنة.

فانطلق يسبني ويلعن أبويا وأبو اليوم اللي قال فيه كده.

وانقطعت علاقتي بأسرة الأشقاء إلى الأبد لا سيما بعد أن جمع بعضهم الأمن قبل انتخابات اتحاد الطلبة وبعد أن قاموا بمظاهرة لم أفهم سببها ولا مغزاها، فقد كانوا يغمون أعينهم ويحملون لافتات مكتوبًا عليها لا (لإيه معرفش). سألت أحدهم عن سببها فأجابني بأنه «هوَّ كمان ما يعرفش»، المهم أن هذه المجموعة خرجت بعد أن ضاعت عليهم امتحانات نصف العام، وتم حل الأسرة إلى الأبد بعد أن تركها نصف الأعضاء، بينما قرر النصف الآخر إنشاء أسرة جديدة وأسموها «أمير الانتقام»، وأول من كانوا سينتقمون منهم هم الأعضاء الذين رحلوا عن أسرة الأشقاء بدعوى أنهم سلبيون ومزعزعو العقيدة.

بعدها شعرت بالفراغ، فالأشقاء كانوا ملئوا عليَّ حياتي. لذلك قررت الانضمام لأسرة أخرى، واخترت أسرة «أمنحتب

https://facebook.com/groups/abuab/

عاش عريان» المتحررة، والتي كان يرأسها عباس الصايغ، واستطاع أن يقنع واحدًا من الأساتذة هو الدكتور علي الخفيف ليكون رائدا لها.

وهذه الأسرة كانت مميزة لأقصى حد، بمعنى أدق كانت أسرة لوز: رحلات وسهرات وفُسح على أعلى مستوى، «أو أدنى مستوى» أنت ووجهة نظرك. وكنا نلعب في الرحلات ألعابًا رياضية لطيفة، مثل «عروسة وعريس» و«شلح واجرِ» و«القلعة هيجت البحر»، إلا أنني قررت الانسحاب منها هي الأخرى بعد رحلة الأقصر وأسوان والتي كبس علينا خلالها بوليس الآداب في قطار النوم السعيد وقام بجمع كل من كانوا يلعبون «القلعة هيجت البحر»، الحمد لله أنا كنت في سابع نومة، بينما أفلت شحاتة المحظوظ أيضا لأنه كان في الحمام غالبا يلعب «عشْ مع نفسك»! المهم أن بعضهم خرج منها سريعا بعد إبراز ورقة الجواز العرفي، أما الباقون بمنْ فيهم عباس الصايغ فقد خرجوا بعد أسبوع لينضموا أيضا إلى أسرة «أمير الانتقام».

بعدها قررت ألا أنضم إلى أي أسرة أخرى رغم أني عرفت أن هناك أُسرًا عديدة محترمة ومعقولة ومتزنة. إلا أنني كنت خلاص اتعقدت، حتى إنني فكرت فعليًا في أن أتبرأ من أسرتي نفسها.

كشف جماعي

بوصولي إلى السنة الرابعة تغيرت حياتي كثيرا، فهي بداية دراسة الأمراض في المستشفى، وبداية الحديث عن الدورات أو الراوندات والتي تتميز بأسماء تشرف، مثل الباطنة والجراحة والأطفال، لتنتبه فجأة إلى أنك في الكلية التي يتخرج فيها الأطباء الذين تسمع عنهم.

من أول يوم انبهرت بدخولي على مرضى يستلقون على سرائر ينادونني بالدكتور عشمان، وكل قسم فيه عدد مدهش من المرضى، يأكلون ويشربون ويأخذون دواءهم مجانا، وتُجرى لهم عمليات جراحية تساوي الآلاف كل يوم بدون مقابل. والآلاف ينتظرون دورهم خارج المستشفى، قد لايجدون سريرا واحدا لينامو عليه إلا أن الأمر ليس بيد الدكاترة الذين يتلقون كل يوم لعنات لا تنتهي.

والمرضى في المستشفى ينقسمون إلى نوعين: المرضى المزمنين وهم تحولوا مع الوقت إلى محترفين، يعرفون جيدا ما

يعانون منه وأسبابه وعلاجه بالاسم، وبالتالي يشرحون للطلبة الأعراض والمضاعفات؛ وهذا من أجل المذاكرة فقط، وما ترونه على شاشات التلفزيون هو خدعة كبرى، فلا مجال في أثناء الامتحانات للحصول على الدرجات النهائية عن طريق سؤال المريض عن حالته، فالتشخيص ليس هو القضية في الامتحان، والممتحنون يعرفون جيدا أن المريض سيكون مصدرا أكيدا لتشخيص حالته وسيخبر به الطالب، إلا أن المرض ما هو إلا بداية لحوار طويل يتشعب في جميع أنحاء المنهج. وطز في التشخيص.

وهناك نوع آخر من المرضى، وهم أصحاب الحالات الطارئة، وهؤلاء كل ما يهمهم أن يخرجوا من مستشفيات جامعة «هيرو» على خير، وأغلبهم من أصحاب الحالات الجراحية، والذين يستاءون كثيرا من عرضهم على الطلبة كأنهم غنيمة لا بد أن يتقاسمها الجميع. وفي أول يوم في قسم الجراحة دخلت أبحث عن قاعة المحاضرات. كلما سألت أحدهم عن مكان المحاضرة أجابني بأن اليوم عملي على السرير! أقلقتني الكلمة قليلا وأنا أرددها، إلا أنني لمحت زملائي يلتفون حول أحد الأسِرَّة، نفس المنظر الذي تراه من النمل حول قطعة من السُّكر، البعض يقف حول السرير والباقون يقفون على كراسي عالية ليروا مركز الدائرة المزدحمة. وقد تجد ثلاثة أو أربعة منهم متعلقين بمن يجاورهم في منظر يشبه مناظر المعلَّقين على بوابات أتوبيسات النقل العام.

دخل بعد دقائق علينا الدكتور حامد أبو الدهب. نظر إلى الطلبة المتجمعين حول المريضة والسرير اللذَيْن اختفيا تماما بين كتلة البشر المفزعة. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أسأل زميلي المعلَّق لأعلى حول السرير:

ـ هو فيه عيانة جوه؟

ـ آه.

ـ بتتنفس ولا ماتت مخنوقة؟

ـ إستنى كده.

قالها ثم قفز إلى أعلى ليرى شيئا ما ثم أجابني:

ـ غالبا لسة عايشة، أنا سامع صوتها.

نادى الدكتور أبو الدهب على الطبيب المقيم، طلب منه ملف الحالة فجاءه به ثم انصرف. أخذ يدير عينيه بين السطور، ثم بدأ يشرح لنا ما تعاني منه وهي الزائدة الدودية، وعما سنجده بالكشف عليها وطريقة الكشف وهكذا.

بدأ بعدها ينادي على الطلبة الموجودين حول السرير في داخل الدايرة عن بعد، صفق بيديه:

ـ ياللي جوه.

جاء صوت واحد من الطلبة كأنه يجيب من قاع البئر:

ـ أيووووه يا دكتور.

ـ حط إيدك مكان الزايدة عند العيانة وشوف رد فعلها، هتلاقيها بتتوجع وانت بتحط إيدك وانت بتشيلها.

ـ شمال ولّا يمين يا دكتور؟

ـ يمين يا جاهل، جتكو القرف.

ـ مااااشي يا دكتور.

انتظرنا قليلا دون أن يأتي رد من القاع السحيق، صفق الدكتور أبو الدهب:

ـ ما تخلص يا بني.

ـ العيانة مش راضية تكشف بطنها يا دكتور، عمالة تقول: لأ، لأ.

ارتفع صوت الدكتور أبو الدهب غاضبا:

ـ إحنا هنهرج ولا إيه، إنتِ مش عارفة إنك جاية تتعالجي في مستشفى تعليمي؟

خرج صوتها ضعيفا، أوصله أحد الطلبة من الداخل:

ـ بتقولك عارفة يا دكتور بس...

ارتفع صوته أكثر.

ـ ما بسش، يا إما تسيبي الولاد يكشفوا عليكو، يا إما تشوفيلك حتة تانية تتعالجي فيها.

جاء صوتها ضعيفا:

ـ يا دكتور حرام عليك أنا مش...

ـ مَشّش في رُكبك، اخرسي خالص، اكشفوا ياولاد.

ارتفعت الأصوات من الداخل:

ـ يا ابني حرام عليك، أنا أد أمك.

ـ حاسبي إيدك يا ماما.

ـ آآي، آآآي، آآآي، آآي...

عددت حوالي ثلاثين آآآي بعدد الأيدي التي وضعت على بطن المريضة. بعدها لم أعد أسمع تأوهات المريضة.

ـ العيانة ماتت أو أغمى عليها يا دكتور.

ـ طيب وسعوا عشان تاخد لها شوية هوا.

احتاجت عملية إجلاء قوات الكشف ما يقرب من نصف ساعة، ولأول مرة ظهرت أمامي المريضة على سريرها، فاقدة الوعي ونصف عارية بعد عملية الكشف الجماعي التي تعرضت لها.

نادى الدكتور أبو الدهب على الطبيب المقيم المسئول عن الحالة:

ـ شوف العيانة بتاعة الزايدة مالها.

نظر إليه الطبيب في حيرة:

ـ هيَّ فين العيانة يا دكتور؟

ـ ما هيَّ يا ابني نايمة قدامك.

أجابه بابتسامة بلهاء:

ـ دي مش العيانة يادكتور، العيانة في الحمام، دي أختها اللي كانت جاية تزورها!

العصابة

أكثر ما عرفت وكرهت في أثناء دراستي في جامعة «هيرو» هو الكِبر وقسوة القوي على الضعيف، وهذه من سمات الكلية والجامعة والشوارع المحيطة والبلاد المحيطة بكُليتنا. كل ما يتغير من هو القائم بدور القوي والقائم بدور الضعيف، ويمكنك بكل بساطة أن ترى ذلك في موظف الأمن «أبو إعدادية» الذي «يمسح الأرض» بكل الواقفين أمام المستشفى والذين يحاولون الدخول (رغم أن ذلك في ميعاد الزيارة)، ورغم أنهم قطعوا تذاكر زيارة (أصل الزيارة في جامعة «هيرو» بتذاكر زي تذاكر المترو والملاهي والمراجيح)، علما بأن منهم موظفين ومدرسين وعمالًا أكثر من موظف الأمن تعليما وأفضل منه عملا (هو يعني بيعمل حاجة غير إنه بيفتري على الناس ويقل قيمتهم).

وتمتد نظرية قسوة القوي على الضعيف إلى جميع غرف وقاعات وطُرقات ومكاتب الكلية، الدكاترة الكبار على الأصغر والأصغر على الأصغر وكلهم على الممرضين (الذكور أو الممرضات الوحشات) ثم الممرضات على العيانين. والعيان

المزمن (القديم) على العيان الجديد، والعيان الجديد على مراته في ميعاد الزيارة لأنها فرصة عمره يشتمها ويهزأها ولو ردت عليه يمسك قلبه ويعمل نفسه بيطلّع ف الروح.

وهناك من الحكيمات والعاملات في المستشفى من تَجبَّرن إلى درجة أنهن أصبحن من أقوى الجميع، هؤلاء غالبا مصدر قوتهن من العمل في المستشفى لسنوات طويلة مما مكنهن من معرفة بواطن الأمور (يعني ممكن يلبسوا أي حد مصيبة بمنتهى البساطة)، أو من عملهن خارج المستشفى مع أستاذ كبير أو مع رئيس القسم في عيادته، أو من مميزات شكلية وجسمانية تمكنهن من التحكم فيك والقسوة عليك أنت واللي جابوك واللي إنت جبتهم. وهذه الفصيلة من التمريض تكون خطيرة لأن نفوذها يمتد خارج وداخل حدود القسم والأقسام المجاورة، وغالبا ما تكون نهايتهن مؤسفة بمجرد أن تتولى دكتورة (أنثى) رئاسة القسم. لا سيما لو كانت جادة ومشغولة فلم تجد وقتا للزواج، وبالتالي ما بتحبش المسخرة، في هذه الحالة يأتي مصير الممرضة سريعا جدّا، بالفصل أو النقل أو ما تيسر منهما، أما إذا كان رئيس القسم الجديد ملتحيًا، فعليك بالصبر لبضعة أسابيع، بعدها يمكنك أن تحكم على توزيع القوى بناء على وجود لحيته أو حلقها، وبناء على وجود شعرها أو حلقه أو تغطية رأسها بحجاب.

أما أعجب أنواع قسوة القوي على الضعيف في جامعة «هيرو»

فهو ما يمكن أن تراه في الامتحانات العملية «الإكلينيكية»؛ حيث يمتحن الطلبة المساكين الغلابة على المرضى، والامتحان الإكلينيكي يعني أن تختبر على مريض وتقدم تقريرا بحالته ونتائج الكشف وهكذا، بعدها «المفروض» أن يبدأ تقييمك من قِبل السيد الدكتور لتحديد مستواك ودرجتك. وقسوة الدكتور على الطالب ليست فكرة غريبة. أما المدهش حقّا فهو قسوة المريض على الطالب، فأنت تحتاج بالطبع إلى مريض متعاون للوصول إلى حالته وحكايته والذي منه، وأحيانا يشرح لك المريض الأكثر خبرة ما يوجد من علامات المرض عنده كأن يقول لك: أنا عندي الكبد متضخم، أو عندي الطحال منكمش... وهكذا، أما المحترفون منهم فيخبرونك (باللغة الإنجليزية) عن التشخيص والعلامات، وقد يتمادى أحدهم فيقول لك توقعاته المرئية عن الأسئلة التي ستوجه لك على أساس أنه حضر امتحانات عشرين سنة فاتوا.

ولأن كل شيء في محافظة «هيرو» يخضع للعرض والطلب، فالمشكلة التي تواجهك هي أن تتفق مع العيان (وتديله اللي فيه النصيب) وإلا فلن ينطق بكلمة واحدة، أو يخبرك أنه يعاني من آلام في الأمعاء بينما هو مشكلته في الكبد. وكل الطلبة يعرفون جيدا أنه لا بد من «تأبيج» العيان قبل الامتحان وإلا «هيقرفك»، والكلية نفسها تجمع من الطلبة مبلغا من المال قبل دخول الامتحان لتعطيه للمريض الذي سيشارك في الامتحان،

إلا أن الخصخصة طالت كل شيء حتى المرضى؛ وبالتالي تكون مصيبتك كبيرة لو دخلت الامتحان بعد طالب غني أو ثري عربي؛ حيث يدفعون للمريض مئات الجنيهات، بالتالي عندما تعطيه العشرين جنيهًا اللي في جيبك، ينظر لك نفس النظرة التي تراها في عين سائق التاكسي كل يوم إذا التزمت بقراءة العداد. ويسألك نفس السؤال: «إيه ده يا أستاذ؟»، الفارق أنه يناديك: «يا دكتور»، يتظاهر بعدها بالعمى والخرس والطرش، ولا يكون أمامك سوى أن تكتب له إيصال أمانة بباقي المبلغ أو تعطيه ساعتك أو الكرافتة لكي يرضى عنك. أما البنات فيستخدمن أحيانا سلاح الدموع والضعف. لكنْ غالبا المرضى المحترفون ما بتدخلش عليهم حركات النصابين دية.

ورغم أن أطباء القسم سينبهون قبل الامتحان بألا تعطي المرضى نقودا، وبأن المريض الذي سيطلب نقودا أبلغ عنه وسيستبعد من الامتحان، إلا أن المرة التي حاول فيها زميلنا عمر أبو حُسن نية أن يبلغ عن مريض رفض أن يخبره عن مكان الألم، انتهت بطرده من اللجنة هو والمريض؛ لأن الدكتور المحترم وجد المريض نصابًا، ووجد أن عمر لا يجيد التعامل مع المرضى (يعني أنه فاشل)، وكان ممكن يكسبه و«الدنيا ما بتتاخدش قفش» وهكذا.

وبالطبع لا أنسى الامتحان الذي دخلنا فيه على حالة بلهارسيا. امتعضت جدًا فحظي العاثر جعلني في مجموعة سوداء؛ أولها

الشيخ «تختخ المليان آل نقود»، والذي أنعم على المريض بباكو مقفول، جعل المريض ينحني ليقبِّل قدميه ويخرج من صدره ورقة مكتوبًا فيها قصة العيان بالكامل، تامة باللغة الإنجليزية وبالأسئلة المتوقعة. ودخلت بعده على نفس الحالة زميلتنا علا الغلبانة، وأخرجت من محفظتها خمسين جنيها فنظر إليها النظرة إياها وسألها السؤال إياه:

ـ إيه ده يا مازمازيل؟

ـ إيه؟ خمسين جنيها، قليل؟

ـ إنتِ جاية منين يا آنسة؟ مش من سنة خامسة؟ يعني تدفعي كويس، دا العيال اللي جايين من سنة رابعة كانوا بيدفعوا مِية، وبعدين ما شفتيش الباشا اللي قبلك دفع كام؟

ـ حرام عليك الوقت بيمر، قول لي بتشتكي من إيه؟

لم يجبها المريض السمج، بل استدار إلى المريض النائم على السرير المجاور:

ـ أهو أنا عشان كده ما بحبش شغل المصريين: فلوس قليلة، ووجع دماغ.

أجابه مريض نحيف يجلس شبه عارٍ على السرير المجاور:

ـ لأ وإيه، اقلع هدومك ووريني دراعك وقياس ضغط وسماع ضربات قلب، وبهدلة.

ـ مش زي الباشا اللي خد الورقة مني واتكل على الله من غير ولا كلمة ولا لمسة، توب علينا يارب من الشغل مع المصريين.

بدأت علا تنهار وهو منشغل عنها بعدِّ الرزمة التي أخذها من الشيخ تختخ، ثم تحولت إلى عصبية وهي تبكي:

ـ لو ماكلمتنيش هاقول للدكتور عليك.

أطلق ضحكة حشاشي وهو يقول:

ـ وريني شطارتِك، وآدي الخمسين جنيه بتاعتِك، خليها لك.

رفعت علا يدها ونادت على المسئول عن الامتحان ليساعدها، اقترب منها فأخبرته بما حدث، اكتسى وجه الرجل فجأة بمظاهر الضعف والغُلب والمرض. وبدأ يستخدم لغة جديدة:

ـ أنا تحت أمرك يا باشا وأمر الدكاترة كلهم، هي العين هتعلا عن الحاجب برضه.

بمجرد مغادرة الدكتور عاد كما كان، لكنه أخذ منها الخمسين جنيهًا (عشان صعبت عليه)، وقال لها خمس كلمات مقتضبة وتركها تكشف عليه «لمدة خمس دقائق» مما جعلني أفهم أن الدقيقة والكلمة من الأخ العيان المحترم تساويان عشرة جنيهات، المصيبة أنني لا أملك سوى ثلاثين جنيها فقط. مِلت على زميلي الجالس إلى جواري، قلت له بقلق:

ـ الراجل ده شكله هيعذبنا.

ابتسم زكي زميلي ساخرا:

ـ هتشوف دلوقتِ.

وزكي في الأصل أكبر منا بدفعتين إلا أنه وصل إلى دفعتنا بعد مرتين من الرسوب.

دخل زكي على المريض، جلس إلى جواره دون أن يتكلم، أخرج سيجارته وأخذ منها نفسا عميقا، وهو يرميه بنظرات نارية، انتظر الرجل أن يبدأ زكي بالتفاوض معه لكنه لم يفعل، بدأ الرجل يشعر بالاضطراب فما يراه من هذا الطالب غريب عليه. خرج صوته متحشرجا:

ـ الدكتور هيشوفك وانت بتدخن يا ابني.

ـ...

ـ يانهار أسود، هاقوله إنك بتشتمه.

ـ... إنت كمان.

ـ إنت بتشتمني ليه؟ إكمني راجل كبير ومريض؟

بدأ زكي يفك الكرافتة وهو يقول:

ـ دا أنا لسة هاضربك وأطلع على جتتك البلا، وهاقول إن إنت شتمتني عشان ما رضيتش أديك فلوس.

ـ مش هيصدقوك.

أخذ زكي نفسا آخر من السيجارة، نفخه في وجهه، ثم قال:

ـ هاطلب منهم يفتشوك، هيلاقوا الرزمة اللي في جيبك، وهاستشهد بالغلبانة اللي انت طلعت عين اللي جابوها، طبعا مش معقول اتنين دكاترة يتبلوا عليك! وبعدها هيطردوك من الامتحان ومش هتعتبه تاني، وحيث إن فاضل خمستاشر يوم على الامتحانات، قول إنت بتعملك باكوين في اليوم، يبقى تلاتين باكو هيروحوا عليك يا حلو، ها إيه رأيك؟

بدأ الرجل ينهار تماما:

ـ حرام عليك يا بني، دا هيَّ دية السبوبة اللي بعيش عليها طول السنة.

ـ وانت مش حرام عليك الغلابة اللي بتبهدلهم كل يوم!

أخرج المريض الورقة المطبوعة من صدره، أخذها منه زكي بلا مبالاة، ألقاها لي وهو يقول له:

ـ الكلام ده تخليه للعيال التعبانة دية.

ـ أمال إنت عاوز إيه يا باشا؟

ـ عاوز نص الغلة يا حلو، يا إما...

هز الرجل رأسه رافضا:

ـ لأ يا باشا النص كتير.

ـ النص وأسيبك تروَّح على خير، وتكمل باقي الامتحانات كمان، وتعوضها بكرة يا عم.

هز الرجل رأسه مستسلمًا. أخرج النقود من سيالة الجلباب، وأعطاها له وهو يدعو على أهله، بعدها أخذ منه زكي نسخة أخرى من الورقة، وغادر دون أن يقول شيئا.

ناديته قبل أن يغادر:

ـ زكي، زكي، ممكن سيجارة؟

ألقى زكي لي سيجارة وكبريتًا، أشعلتها وجلست إلى جوار المريض آخذ منها أنفاسا عميقة، وأنظر إليه في عينيه بنظرات نارية دون أن أتكلم، فصاح في غضب:

ـ لا بقى ياولاد الحرامية، دا إنتو أكيد عصابة!

حوض السمك

الراوندات أو المجموعات في جامعة «هيرو» هي أول تجمعات دراسية حقيقية داخل الكلية تراها، فأعداد طلبة المجموعة الواحدة لا يزيد على الثلاثين طالبا، ينتقلون معًا من قسم إلى قسم ويمتحنون معًا «الامتحانات الدورية الصغيرة». ينهون المادة ويدخلون إلى التي تليها. مثلا أمراض نساء لمدة شهرين، ثم باطنة ثم جراحة أو أطفال... وهكذا. نفس العشوائية الموجودة في المجتمع، رغم أن الكل يظن أن الطلبة في كلية الطب ملائكة ومتفوقون، إلا أن الحقيقة أن كل الأشكال والألوان موجودة في هذه الكلية. أذكر أنني في أحد الأيام قررت أن ألعب لعبة غمض عينك تسمع مسخرة، بدأت الحوارات المحيطة تدخل أذني من كل اتجاه:

• تخيل يا دودي العربيات المرسيدس الإسبور نزلت وبقت بنص مليون جنيه! لازم أبيع عربيتي بسرعة عشان دي فرصة.

• تذكرة المترو غليت وبقت بجنيه ونص يا درش، الناس تعيش إزاي بس؟

• بابا اتعين مدير إقليمي للشركة في الشرق الأوسط.

• اشتريت مايوه بكيني تحفة هيقلب مارينا.

• هتروحوا كرنفال الجزيرة؟

• أنا كسبت بطولة الجامعة في السباحة.

• التصوير بقى بربع جنيه، قال مجانية تعليم قال!

• طبعا النقاب فرض، إنتِ كده متبرجة.

• أبويا طلع معاش ومبهدلنا في البيت، شكله جاله اكتئاب.

• علقنا بنتين من جامعة الدول إمبارح، طلعوا طالبتين في كلية التجارة.

• هنلعب كورة يوم الخميس؟

• إنتِ اتغيرتِ معايا أوي يا هدى.

• رحلة الكنيسة يوم الجمعة، طبعا جاية؟

• الواحد لازم يعمل جمعية عشان يشتري جزمة بدل اللي اتقطعت.

• نفسي أهاجر.

• حسبنا الله ونعم الوكيل.

• خربوا البلد.

• ياعم مفيش خلاص.

• العَزا بالليل في الشرابية.

لا أستطيع أن أمنع نفسي عن الابتسام، يتكلمون في كل شيء وأي شيء في آن واحد، حالهم مثل حال كل من يعيشون في المدينة نفسها، إلا أنني كنت أتعجب عندما أرى حالات التحول والانقسام على النفس التي تصيب كثيرًا من الناس من حولي، فتشعر بأنك منقسم نفسيًا على نفسك، والمثال الأفضل لهذا الموضوع ينطبق على تيتي، والتي اتضح لي بعد ذلك أن اسمها فتحية، والتي ظننت عندما رأيتها لأول مرة أنها عاملة في بوفيه المستشفى. لكني اكتشفت بعد ذلك أنها طالبة مثلنا، أو الحقيقة ليست مثلنا تماما. فبالرغم من أنها قليلة العود فإن صوتها وطريقتها في الحديث يماثلان المرحوم الشاويش عطية في أفلام إسماعيل يس. مثلا أول يوم سمعتها تتكلم فيه كانت غاضبة من إحدى زميلاتها، وأعلنت عن نيتها في استخراج «أو تطليع عينها وعين أبوها وعين أمها بنت الـ...»، أردفت في حدة أنها ما تبقاش تيتي لو ما نطتش في كرشها وعلمتها الأدب، وعندما حاولت صديقتها الألطف قليلا تهدئتها نهرتها:

ـ إنتِ هتتلمي ولا أطلّع عين أمك إنتِ كمان.

والحقيقة أن تيتي كان يبدو عليها أنها من عائلة بيئة موت؛ لذلك لم أندهش لكلماتها كثيرا. والحقيقة أنني لم أكن أستطيع أن أرفع عيني من عليها عندما أراها باحثا عن بِشلة في وشها أو مطواة في قورتها، وعندما كانت تلتقي عيوننا كانت تنظر لي بابتسامة صفراء، فأدير وجهي بعيدا خشية على عيني وعين الست الغالية أمي.

كعادتي كنت أدخل إلى القاعة الصغيرة وأجلس منتظرا بداية المحاضرة، أغمض عيني، بمرور الوقت بدأت أحفظ أصوات كل من في المجموعة، إلا أنني في أحد الأيام سمعت همسا أنثويّا خارق الجمال والحلاوة يفوق جمال صوت شادية ونجاة، ومليئا بالإثارة متجاوزا إثارة نانسي وهيفاااء. كانت تتحدث بلغة أجنبية اعتقدت أنها الروسية أو التركية أو حاجة كده:

ـ شوتك أب كيدا.

فتحت عيني ودعكتهما ببطء لأتأكد أنني لا أحلم. كرَرتْ:

ـ شوتك أب كيدا بيا كامحة.

التفت وأنا أجيب بلغة إنجليزية بأني لا أفهم ما تقوله، بعدها أصبت بنوع من الخرس المؤقت عندما اكتشفت أن هذا الصوت الرقيق يخرج من بين شفتَيْ تيتي التي عاجلتني بضحكة من إياها:

ـ أنا باأكلم عربي، أنا شفتك قبل كدا بره الكامعة؟

ـ ااااااا

ـ إنت ساكن فين؟

ـ في السيدة زينب.

ـ ياااي وأنا كمان ساكة ف السيتة، شتك ف المتو، كويس، نبقى نروح سوا عشا تبت من الماكسات، وأنا ما بعفش أتافع عن نفسي.

اتضح لي أن الترجمة الحرفية لما تقوله كالآتي: ساكنة ف السيدة، شفتك في المترو، تعبت من المعاكسات وأنا ما باعرفش أدافع عن نفسي.

هززت رأسي مبتسما، واعتذرت لها لأني أريد الذهاب إلى الحمام؛ فقد خفت في حالة المقاومة أن يتم استخراج عيني أو يتم النط في كرشي من جميلة الجميلات.

ولأن الزملاء الأكبر سنّا طالما شرحوا لي نظرية الأسماك في الكلية فأنا لم أندهش. ونظرية الأسماك تقول إن في كلية الطب حركة صيد دائمة. في السنوات الأولى يقوم الذكور بمحاولة إلقاء شباكهم على الطالبات اللاتي غالبا ما يتمنعن لأنهن في مرحلة الاهتمام بالمذاكرة والكلية، وفي هذه المرحلة ستجدهن يشبهن أسماك البلطي النيلي غير الجذابة بالمرة.

بداية من السنة الرابعة يتحولن إلى أسماك ملونة تحاول صيد

الذكور لأنهن يبدأن في الشعور بأن العمر يجري ولا بد أن تلحق أيّا منهن بأي عربة قبل أن يفوت القطار، وتستمر هذه المرحلة إلى أن تمسك بعضهن بواحد يندرج تحت باب «ضِل راجل ولا ضِل حيطة». وتستمر هذه المرحلة لسنوات طويلة، تنتهي بزواج البعض ويبقى البعض بلا زواج، ويبدأن في رفع شعار «الطب زي الفريك ما يحبش شريك»، يقبله طبعا الذكور على أساس أنه أريح لهم، بينما تبدأ المتزوجات منهن بتأكيد أنهن يقلن ذلك من باب «دا قُصر ديل يا أزعر»، لكن في النهاية أؤكد لك أن الغالبية يكتشفن أنهن لبسن في الحيط بالزواج أو بدونه، مهما حاولت كل منهن أن تغني على الأخرى: الدنيا ربيع والجو بديع.

بنهاية سنوات الكلية، لا سيما في أثناء سنة الامتياز وما يليها، يظهر في حياة الأطباء (الذين كانوا صيادين فيما سبق) نوع جديد من الأسماك وهو القراميط، والقراميط فصيلة غير نادرة من الإناث، أحيانا يكنَّ من الممرضات أو العاملات، وأحيانا بين الطالبات والطبيبات، وتتميز القراميط بالقدرة على أن تتلوى أمامك وتجعلك تقف أمامها زنهارا. وخطة القراميط ترتكز على جذبك معها إلى الطين ودفنك فيه بعمق إلى أن يصبح خروجك من هذا الطين يعتمد على تمسكك بإحداهن لأن ما فيش سمكة نظيفة سترضى بك بعدها، كما أنها تهددك بأنها ستفضحك إذا تركتها وتقول لكل الناس إنك رجل، قرموط.

ولكن إحقاقا للحق يجب أن أعترف بأن هناك أسماكًا أخرى

يجري وراءها الصيادون من أول يوم إلى آخر يوم. مثل أسماك البياض الشاهق وأسماك الرأس المغطاة وإناث الحيتان من بنات الحيتان الكبيرة.

أما كائن الأخطبوط، فغالبا ما يكون من مُدرسي الكلية الذين وصلوا إلى الخامسة والثلاثين بدون زواج. ويبدأ في البحث عن عروس البحر من بين الطالبات اللاتي يراهن في المحاضرات. وهذا النوع يتبع نفس طريقة التحور التي تستخدمها تيتي أم صوتين، فهو غالبا ما يكون ضاريا ومفترسا مثل سمكة القرش في أثناء المحاضرات الخالية من الجميلات، وبمجرد ظهور عروس البحر تجده رقيقا ولطيفا ومبتسما علَّه يستطيع أن يمد أذرعه حولها ويحولها إلى.. أنثى الأخطبوط.

السنة الكبيسة

وصلت إلى السنة السادسة والنهائية في الكلية. كان أول ما تعلمته في البكالوريوس هو أن التعريف البسيط للسنة الكبيسة على أنها سنة مكونة من ٣٦٦ يومًا هو تعريف غاية في البراءة والطيبة، وصاحبه لم يدخل يوما كلية الطب ليعرف السنة الكبيسة حقّا. ستة عشر شهرا متتالية من المعاناة والإرهاق والاجتهاد، وأعتقد أن مخترع الغسالة «الفول أوتوماتيك» كان طالبا في كلية الطب وجاءته فكرة هذا الاختراع العبقري في أثناء مروره بالسنة الأخيرة، فأنت تمر بمراحل متعددة تسمى بالدورات (مثل دورات الغسيل تماما)، وهذا النظام ليس اختراعا مصريّا فهو معمول به في العديد من دول العالم، أما ما يختلف في مصر فهو نظام الغسيل والتشطيف الذي تتميز به الجامعات المصرية دونًا عن باقي دول العالم، فالامتحانات التي تمر بها كل ثلاثة أسابيع تشبه تماما ما تمر به قطعة الملابس داخل الغسالة، فامتحان ينزل على رأسك كالماء البارد وآخر كالماء الساخن وآخر كالصابون في عينك وهكذا، وهناك بعض الممتحنين

يعشقون أن يُشعروك بأنك قطعة ملابس داخلية رجالي على (فانلة)، أو قطعة ملابس داخلية سفلى (كُلك نظر)، المهم أن تشعر بأنك أقل كثيرا ممن تقف أمامهم. ومع كثرة المواضيع والكتب والعشوائية في الامتحانات تخرج من الغسالة (قصدي من السنة) أبيض زي الفل. يؤكد ذلك ما يقوله لك الأساتذة الكبار في الكلية، وعند بداية عملك في المستشفى، أنك لم تتعلم شيئا في الكلية (بعد السنوات الثماني بالامتياز)، وأن بداية تعليمك هي مع بداية عملك في أي قسم بعد التخرج.

والمدهش أنك تتعلم في الكلية قاعدة مصرية خالصة في أثناء دراستك وهي الخاصة بأهمية كل جزء من المنهج ودوره وقيمته في الامتحانات وليس في رعاية المرضى! والمضحك أن يخبروك بأن الجلدية والأشعة والروماتيزم وجراحة المسالك وجراحة المخ والأعصاب مش مهمة في البكالوريوس (يعني فوِّت)، والأدهى من ذلك أن داخل المنهج الدراسي للتخصصات الكبرى يظل فَهْمُ المهم وغير المهم للامتحان هو القاعدة الأساسية لكل من يرغب في تحقيق تقدير عالٍ، أما من يتعامل مع المنهج على أنه كله طب وكله مهم، فغالبا ما ينتهي به الأمر في نهاية السنة بالفصام والانهيار العصبي، وتجده واقفا أمام مكتبة الكلية ليتشاجر مع كل الكتب الموجودة وهو يسأل في حيرة: «هو كلكو عليَّ ولا إيييه؟».

وطبقا لفكرة التعليم المصرية الخالصة الحديثة، وللحِكم

التي تأصلت في ضمير الجيل الجديد من المصريين، مثل «ذاكر تنجح، غش تجيب مجموع» و«العلم لا يكيل بالبتنجان» و«بلدنا بلد شهادات (ليست بلد علم)»، فقد ظهر جيل من المعيدين والأساتذة ومن بينهما في الكلية احترفوا الدروس الخصوصية والتي تحولت لتجارة أربح من تجارة السلاح. وبدأ التنافس بينهم يظهر واضحا في الطريقة التي يحاول كل منهم أن يجذب بها الطالب، وبدأ كل منهم يرفع شعارا غير مكتوب لطريقته في التعليم، فتجد الدكتور مخلص الذي يرفع شعار «نحن نشرح كل شيء». وهو مازال يحاول إنهاء المنهج منذ سنة ١٩٨٠ حتى الآن، والدكتور عارف الذي يرفع شعار «من أين تؤكل الكتف؟». والذي يعطيك عشرين ورقة تضمن لك الجيد جدّا على الأقل والأكثر في نفس الوقت، والدكتور فالح الذي يعطيك خمسين سؤالا ويؤكد لك أن الامتحان لن يخرج عنها، وتجد الطلبة تنتظره كل عام بعد اللجنة لتسأله نفس السؤال.

ـ نشنت يا فالح؟

أنا شخصيّا اخترت أن أكون ضمن المجموعة الأخيرة والتي تعتمد على خبرة المراهنات ودعاء الوالدين ونفس تلك الأشياء التي يعتمد عليها فريقنا القومي لكرة القدم. المشكلة أن المجموعة عند الدكتور فالح لا تقل عن مائتي طالب، والدرس الواحد يكرر بحذافيره شرحا ورسما وكلاما ومزاحا (غالبا بايخ) ثلاث مرات أسبوعيّا، ومن حق أي طالب من المساهمين أن

يحضر في أي مجموعة؛ لذلك يجب أن تكون ذكيّا وتختار المواعيد الأقل ازدحاما، وهي نفس مواعيد فضاء الشوارع في مصر، مثل مجموعة السادسة صباحا والجمعة بعد الصلاة.

مع أيام الامتحانات تكون النقود كلها دُفعت فتصبح مجبرا على حضور موعد وحيد لا يقل عن خمسمائة طالب، وفي إحدى المرات كنت جالسا في الصف الخلفي وفاتني جزء من الشرح فرفعت يدي مشيرًا للدكتور فالح الذي كان واقفا ممسكا بالميكروفون يشرح في تجلٍّ وتركيز، وحركات يديه وتشويحاته تشبه ممثلا مسرحيّا يتجلى في الفصل الأخير، رفعت يدي:

ـ دكتور، أنا ما سمعتش.

لم يجئني أي رد رغم أنه نظر إليَّ من بعيد وهو يواصل شرحه، سكت محرجا لأنني قاطعته إلى أن وجدته يقول:

ـ حد مش فاهم؟ ولَّا ندخل على اللى بعده؟

ـ أنا مش فاهم يا دكتور.

ـ إنت يا بني ياللي قدام، فاهم ولَّا مش فاهم؟

ـ أنا قاعد ورا خالص يادكتور، ومش فاهم حاجة.

ـ برافو عليك.

ـ برافو إيه يادكتور باقولك مش فاهم حاجة.

ـ هايل يابني، قولنا اللي إنت فهمته.

ـ مش فاااااهم حاجة.

ـ برافو يا ابني، ندخل على اللي بعده.

أصابتني ثورة عنيفة عندما بدأ الدكتور فالح يشرح الجزء التالي، قمت غاضبا وقفزت فوق الكراسي إلى أن وصلت إليه بعد أن دست على ما يزيد على عشرين رأسا على الأقل، وصلت إليه وهو ممسك بالميكروفون، يشرح ويشوح ويتجلى.

ـ يا دكتور أنا كنت باقول لحضرتك: أنا مش فاهم.

نظر إليَّ في غضب، ووضع الميكروفون جانبا.

أمسك ورقة وقلمًا وبدأ يكتب دون أن ينظر إليَّ، للحظات شعرت بالرعب، فصوت الدكتور فالح ومزاحه كانا يجلجلان في القاعة رغم أن فمه مغلق أمامي، بل إن نفس سؤاله تكرر:

ـ حد مش فاهم حاجة؟

سمعت صوتا خافتا يأتي من داخل القاعة:

ـ أنا مش فاهم يا دكتور.

نظرت إلى الدكتور فالح الذي لا زال منهمكا في الكتابة. فارتفع صوته يصم أذني رغم أنه لم يفتح فمه:

ـ برافو عليكم ندخل على اللي بعده.

أمسكت بكُم البالطو الأبيض:

ـ برافو إيه يا دكتور! الأخ بيقول مش فاهم.

رفع رأسه في غضب. أشار لشخص ما من خلفي فتوقف صوته، التفتُّ لأجد «دي چي» واقفا أمام أجهزته وعلى أذنيه سماعتان، أعطاني الدكتور فالح الورقة التي كتبها لي، لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك غيظا وأنا أقرؤها:

ـ معلش يابني، أصل صوتي رايح، والحصة النهاردة ماشية بنظام البلاي باك.

الإشاعات

انتهت السنة السادسة الكبيسة بحُلوها ومُرها، بعد شهور طويلة وليالٍ أطول وعناء لا مثيل له. لكن على الأقل رأيت فيها خيرا في كلية الطب جامعة «هيرو». أفضل ما فيها هو أن المحاضرات تعود للظهور مرة أخرى، فبعض الأساتذة الكبار المشهورين يدرسون محاضرات مجانية تشمل المنهج بأكمله من أول يوم لآخر يوم، في مواعيد ثابتة في مدرجات الكلية، رغم أنه معروف عنهم أن وقتهم يساوي الكثير وأن كلًّا منهم مشغول لأقصى حد في عياداته أو عملياته، ومحاضراتهم من الوسائل الرائعة للوصول إلى الفهم والعلم الحقيقيَّيْن لمن يحتاجهما، لكن نظام التعليم الهيروي الشهير يؤمن بأن الحب شيء والزواج شيء آخر، أو بمعنى أدق: الطب شيء والامتحان شيء آخر، لكني قررت أن أحضر بعض هذه المحاضرات رغبة في توسيع مداركي في بعض المواضيع المعقدة.

كان الاختيار منحصرا بين ثلاثة أساتذة: الدكتور خيرت الشريف والدكتور مظلوم والدكتور السوهاجي، بعد تفكير

وسؤال اخترت الدكتور خيرت وبدأت رحلتي التي لم تستمر إلا لأسبوع واحد فقط. فكالمعتاد يجب أن يُفسر كل شيء طيب في جامعة «هيرو» كما يُفسر كل شيء طيب في «هيرو» نفسها على أنه يحمل غرضا خفيّا.

المحاضرة الأولى (دكتور خيرت الشريف):

جاءت جلستي إلى جوار مجدي وصديقه دودي الواطي وصديقته نانا، كنت أحاول التركيز؛ لذلك لم أشترك في الحوار الذي دار بين مجدي ودودي إلا أن صوتهما كان يخترق أذني.

بدأ مجدي الحديث عن الدكتور خيرت (الذي يعرفه هو جيدا):

ـ الراجل ده راجل محترم، عمره ما اتأخر عن محاضرة.

دودي:

ـ مع إن عيادته بتخلص الساعة اتنين الصبح، وطول اليوم عنده عمليات، وفي الآخر بييجي فايق ويشرح لنا زي ما يكون بيشرح لولاده.

ـ ولاده إيه؟ دا معندوش ولاد.

ـ يا عيني، ما بيخلفش؟

ـ لا يا عم، مش متجوز أصلا.

ـ الفلوس دي كلها والنضافة دي كلها والشياكة دي كلها ومش متجوز، أكيد بيعُط، خمرة ونسوان وخلافه.

ـ يا عم حرام عليك، دا جارنا من زمان، دا راجل محترم، مالوش في سكة الخمرة ولا النسوان ولا الحرام من أصله.

بعد المحاضرة ذهبت أنا ودودي الواطي وصاحبته نانا وشلتهم لنشرب شايا ونفطر قبل أن نبدأ الدروس. تنهدت نانا في دلع وهي تهمس:

ـ الراجل دا جامد موت.

سألها دودي في غضب:

ـ إيه اللي جامد فيه إن شاء الله؟

ـ كل حاجة: لبسه، شكله، مخه، شرحه، طب دا أنا شميت البرفان بتاعه كان هيغمى عليَّ. يا بخت مراته.

ضحك دودي بغيظ وسخرية وشماتة:

ـ مراته إيه يا هبلة! دا مش متجوز.

ـ يا خسارة.

ـ خسارة إيه وزفت إيه، الواد مجدي الأبيض ساكن معاه في نفس العمارة، وقال لي إنه يا حرام مالوش في الستات خالص.

ـ مالوش في الستات! ليه؟

ـ كلك نظر بقى، لامؤاخذة يعني... ولا بلاش، ربنا يكون في عونه.

هزت نانا رأسها في حسرة:

ـ صحيح: تعرفي فلان؟ آه أعرفه، عاشرتيه؟ لأ ما عاشرتوش، يبقى ما تعرفيهوش.

لم أستطع أن أسكت عن هذا الظلم البيِّن. نظرت إلى دودي بقرف:

ـ إخص عليك ياواطي، يا نانا مجدي كان بيقول إن الراجل مالوش في الحرام، بس الواطي ده بيقول أي كلام، يا راجل حرام عليك.

نظر إليَّ دودي في غضب:

ـ إنت مالك محموق كده ليه؟ هو كان من بقية أهلك؟

بدأ أصدقاؤه يجاملونه على قفايا:

ـ تلاقيه بيروح يسليه في البيت، ما هو شكله طري وحلو زيه.

ـ هو قالك مالوش في الموضوع كله، ولَّا مالوش في الحريم بس؟

ـ إخص عليك يا عشمان كنا فاكرينك موسى، طلعت إدريس (بتاع عمارة يعقوبيان).

غادرت في غضب، بعد بضعة أيام قليلة لاحظت أن نصف بنات الدفعة لا يتوقفن عن الهمس عندما يرونني، وأن نصف شباب الدفعة أصبحوا يطلقون عليَّ إدريس؛ لذلك قررت أن أتوقف عن حضور محاضرات الدكتور خيرت (اتقاء للشبهات).

كان البديل الأفضل بالنسبة إليَّ هو حضور محاضرات الدكتور مظلوم، واخترته بعد أن تأكدت أنه متزوج اثنتين، يعني أمان!

جاءت جلستي في المحاضرة إلى جوار سامح وعادل الرغاي، شعرت بالقلق عندما بدأ الحوار بينهما بنفس الجملة التي بدأ بها الحوار بين مجدي ودودي:

ـ الراجل ده راجل محترم، عمره ما اتأخر عن محاضرة.

ـ مع إن عيادته بتخلص الساعة اتنين الصبح، وطول اليوم عنده عمليات، وف الآخر بييجي فايق ويشرح لنا زي ما يكون بيشرح لولاده.

ـ ولاده من الأولانية، ولَّا من التانية؟

ـ إيه ده؟ هو متجوز اتنين؟

ـ أيوه ياعم كان جاي مصر مش لاقي ياكل، واجوِّز الدكتورة عزيزة، جابتله شقة وعربية وظبطته، من سنتين اتجوز بت صغيرة من دور ولاده، وخلِّف منها كمان.

ـ وانت عرفت منين؟

ـ أصله ساكن عندنا في العمارة، كل يوم الصبح كانت الدكتورة عزيزة تطلع وراه على السلم وتقول له: ياحافي يا جعان، أنا ممكن أرميك في الشارع. لغاية ما اتجوز عليها.

ـ يا ساتر دا وحش قوي.

ـ ولعلمك هو عامل المحاضرات دية علشان يصطاد بيها بنات جديدة، أصله صايع وبتاع بنات وما بيركعهاش، يخرب بيته، ربنا يهده!

آثرت السلامة وعدم التدخل في الحديث، وقررت ألا أحضر للدكتور مظلوم مرة أخرى!

اتجهت إلى محاضرات الدكتور السوهاجي، بعد أن تأكدت من أنه متزوج زوجة واحدة فقط ولا يدخن ويصلي وسمعته ناصعة البياض، وأختار أن أجلس إلى جوار طالبين لا أعرفهما، لكن الحوار بينهما بدأ فجأة بنفس البداية:

ـ الراجل ده راجل محترم، عمره ما اتأخر عن محاضرة.

ـ مع إن عيادته بتخلص الساعة اتنين الصبح، وطول اليوم عنده عمليات، وف الآخر بييجي فايق ويشرح لنا زي ما يكون بيشرح لولاده.

ـ قول زي ما يكون بيشرح للشباب اللي في الجماعة.

ـ جماعة إيه يا عم؟ كل سنة وأنت طيب.

ـ إنت اللي طيب.. مش شايف دقنه أد إيه؟ ما هو الراجل ده أصلًا من الخلايا النايمة، بيقولوا محاضراته دية علشان يجمع جيل جديد.

ـ وأما هو خلايا نايمة، مربي دقنه ليه؟

ـ ما هو ده التغيير يا حمار، الخلايا القايمة لما تحلق دقنها، الخلايا النايمة تربيها فمحدش يشك فيهم.. على فكرة ابن خالة جوز أختي شغال في مخابرات شرطة المرافق وهو اللي قاللي الكلام ده، وقاللي إن عندكم في الكلية خلية نايمة كبيرة اسمها الدكتور السوهاجي.

بعد لحظات طردني الدكتور السوهاجي من المحاضرة عندما شاهدني أصفع الأخ على قفاه وأنا أسأله في غيظ:

ـ إنت عارف النايمة دي تبقى مين يا بتاع مخابرات شرطة المرافق؟

وانتهت علاقتي بالمحاضرات إلى الأبد.

ملحوظة: قبل نهاية العام، كان الدكتور خيرت تزوج نانا (بعد أن ساءت سمعته). بمجرد أن حملت أصبح يمشي معها يوميًا ساعتين في كل طرقات الكلية وهي ترتدي تي شيرت قطن

مكتوبًا عليه فوق بطنها المنتفخ من الحمل «تم بمعرفة أ.د/ خيرت الشريف»!

الدكتور مظلوم طلق زوجته الثانية، وحاول أن يرجع إلى زوجته الأولى على أن تتوقف عن معايرته بأنها تزوجته وهو حافٍ، إلا أنها رفضت.

مُنع الدكتور السوهاجي من إعطاء محاضرات، رغم أنه حلق دقنه بعد خروجه من المعتقل واتضح أنه كان يربيها لأن عنده حساسية في وجهه.

أنا طلبت توقيع الكشف الطبي عليَّ لأؤكد أنني صاغ سليم، وأخذت شهادة لأبرزها لكل من يتهمني بأنني كنت على علاقة بالدكتور خيرت.

المرافقون

في سنة الامتياز اكتشفت فجأة أن كل ما تعلمته في الكلية كوم، والطب العملي كوم آخر، تذكرت كلام الدكتور حامد عن مرمطة أطباء الامتياز عندما وجدت كل ما أخبرني به يحدث لي. ما لم يخبرني به وقتها أن «قلة القيمة لن تأتي من الدكاترة فقط، بل من المرضى أيضا»!

أولى اللحظات الحرجة التي عشتها طبيبا «بعد كل اللحظات ـ اللا مؤاخذة ـ حرجة» في الكلية، عندما كنت أقضي نوبتجيتي بوصفي طبيب امتياز في قسم الاستقبال والطوارئ، في ذلك اليوم سمعت صراخا وعويلا وشجارا على باب المستشفى، قمت من مكاني واتجهت إلى الباب فوجدت مشاجرة كبيرة بين موظفي الأمن وعشرات الأشخاص الذين بدوا لي «كعصابة» من معتادي الإجرام، كان يحملون مصابا يحاولون الدخول به إلى المستشفى، ورجال الأمن يحاولون منعهم من الدخول لأن عددهم كان يقترب من مائة فرد، وطبعا دخولهم كان سيجعل

المكان شبيها بعلبة السردين! لكن كعادة أهل المرضى في «هيرو» كلهم يريدون الدخول من أجل عمل الواجب الذي لم أعرف طبيعته إلا بعد ذلك اليوم، المهم شعرت بالتعاطف مع المصاب الذي كان «سايح في دمه»؛ لذلك قررت أن أتدخل متحاميا في البالطو الأبيض الذي أرتديه، فقد كنت أعرف جيدا أن البالطو الأبيض له هيبة عند الناس، بالذات عندما يكون الأمر على بوابة المستشفى، دخلت في وسط المشاجرة وأنا أصيح بغضب:

ـ باااااس، اهدوا شوية، أنا دكتور في المستشفى، فيه إيه؟

نجحت خطتي، توقف الشجار والتفتت الرءوس كلها إليَّ فارتسمت على وجهي ابتسامة ثقة واسعة، تابعت في صرامة:

ـ إيه الدوشة اللي إنتو عاملينها دية؟

اختفت الابتسامة التي كانت قد ارتسمت على وجهي فجأة عندما جاءني الرد على هيئة «قفا» محترم كالصاعقة من الخلف، التفت في ذهول باحثا عمن ضربني لأجد عشرات الوجوه تبتسم في شماتة. صحت غاضبا:

ـ مين الحيوان اللي...

قطع كلامي قفا آخر جاءني من الجهة الأخرى فالتفت خائفا هذه المرة ولم أتكلم، وعندما جاءني القفا الثالث لم أتكلم ولم ألتفت بل صحت في غيظ:

ـ لو ما اتلمتوش وبعدتوا مش هادخَّل العيان وهاسيبه يموت هنا.

أحنيت رأسي في خوف انتظارا لقفا جديد لكنه لم يأتِ، بل على العكس، بدأت العصابة تتراجع إلى الخلف. شعرت باسترداد جزئي لكرامتي، إذن فقد نجحت الخطة، منحني هذا المزيد من الشجاعة لأقول:

ـ العيان هيدخل ومعاه اتنين بس منكم، والباقي يوريني عرض كتافه!

دخلت إلى المستشفى وخلفي المريض يحمله اثنان من أهله، جريت به إلى غرفة الإفاقة، طلبت من الممرضة استدعاء الطبيب المناوب، بدأت في تقييم الحالة.

كانت الحالة ببساطة عبارة عن جرح قطعي في الرأس وكسر في قاع الجمجمة مع طلقتي خرطوش في الصدر وانفجار في الطحال جراء الاصطدام بجسم صلب، باختصار، كان الأخ المصاب «مفروما»، والواضح أن ذلك جراء مشاجرة. صرخ فيَّ الأخ الواقف إلى جواره:

ـ اعمل حاجة يا أخي.

كنت واقفا أمام المريض في فزع، فالحالة طبعا أكبر كثيرا من إمكانات طبيب امتياز، وطبقا لخبرتي الصغيرة وقتها، وخبرتي

الكبيرة الآن، الحالة كانت أكبر من إمكانات ابن سينا شخصيّا، وبالحسابات البشرية البسيطة لا حل لها إلا عزرائيل.

ـ مالك واقف زي الصنم كده ليه يا دكتور الغبرة؟

خرجت هذه الجملة لدهشتي الشديدة من الأخ نصف الميت! كان لا بد أن أتحرك، أهم شيء أن أحافظ عليه واعيا إلى أن يصل الباشا المقيم من سكن الأطباء. ابتسمت في اضطراب وأنا أسأله:

ـ إنت اسمك إيه؟

أجابني بصوت أجش:

ـ حيكة.

ابتسمت مرة أخرى:

ـ عاشت الأسامي يا سي حيكة.

أدهشني الأخ حيكة عندما نجح في أن يخرج ذلك الصوت الاستنكاري قبل أن يصيح بالرغم من حالته:

ـ (فعل غير لائق ثم لفظ غير لائق)، إنت هتصاحبني يا روح أمك؟ اعمل حاجة.

لكن يبدو أن الصيحة استنفدت جزءا كبيرا من أنفاسه، فبدأ يضطرب، وبدأت أنا أيضا أصرخ في الممرضة:

ـ الحقوني بالنايب الله يخرب بيوتكم.

لحسن الحظ وجدت النائب يدخل علينا وهو يفرك عينيه اللتين اتسعتا فجأة عندما رأى الحالة، بدأ يقيمها سريعا، الحقيقة أنني شعرت بالإعجاب به وهو يعرف ما يفعله أكثر مني بالطبع، لحظات وكان قد علق له محلولًا وأجرى اتصالا بإخصائي المخ والأعصاب واستشاري الجراحة وأعلن أنه سيدخل العمليات بعد قليل.

ملت عليه هامسا:

ـ أخباره إيه يا دكتور؟

هز كتفيه في لامبالاة:

ـ «Dead»، ميت لا محالة، بس لازم نحاول.

هززت رأسي مؤيدا، في تلك اللحظة فوجئت بدولاب أسمر ضخم يرتدي فانلة بحمالات مخرمة وبنطلون بيجامة مبقعًا يقتحم الغرفة وهو يصرخ:

ـ مييين اللي عمل فيك كده يا حيكة؟

أدهشني أن حيكة لا زال فيه النفس ليقول وهو يبكي:

الواد شمندل ابن الـ(لفظ غير لائق) فشخني (لفظ لائق لأنه يعبر عما حدث) يا تايسون.

خرجت صرخة طويلة من الأخ تايسون:

ـ عاا.

ثم جرى خارج المستشفى. بعد لحظات تم نقل حيكة إلى غرفة العمليات.

بعد نصف ساعة كان أمامي في الغرفة مصاب آخر ممزق بسنجة، لم أندهش عندما سألته عن اسمه فأجاب:

ـ شمندل.

بعد نصف ساعة، وصل الأخ المحترم تايسون مصابا بطلق ناري في الرأس.

بعد نصف ساعة أخرى، كان الاستقبال (الأَسِرَّة والكراسي والأرض ومكاتب الموظفين) ممتلئا تماما بسبعة وخمسين مصابا وجريحا جاءوا جميعا من حي واحد، والحقيقة أن الذبح كان سمة غالبة على معظم من وصلوا!

بعد نصف ساعة، كلفني النائب بأن أنقل لأهل المرضى الذين تجمعوا في الخارج بأن أربعين منهم ماتوا وثلاثة في حالة حرجة، أعطاني كشفا طويلا بالأسماء لألقيه عليهم مثل نتيجة الثانوية العامة، أخبرني أنه سيذهب لشراء علبة سجائر ويأتي ثم غادر على عجل. اندهشت لأنني أعرف أنه لا يدخن لكن فكرت أن ربما الضغط العصبي الذي تعرض له كان سببا في اتجاهه المفاجئ للتدخين. خرجت على الناس بالورقة، كانوا

يقفون فيما يشبه المظاهرة، قبل أن أفتح فمي سألني واحد منهم وهو ينظر إليَّ بعداء مخيف:

ـ حيكة جرى له إيه؟

هززت رأسي بأسى كالأفلام:

ـ والله إحنا عملنا اللي علينا، لكن حالته كانت صعبة.

ضاقت عيناه وأخرجتا شعاعا رفيعا من الليزر الأحمر الذي سقط على وجهي وهو يقول:

ـ حيكة جرى له إيه؟

ابتلعت ريقي وأنا أقول:

ـ البقية في حياتكم.

لا أدري من أين خرج ذلك العيل الذي لا يزيد عمره على سبع سنوات ليصرخ في صوت يشبه صوت العِرسة الختفاء:

ـ أنا سمعت الدكتور ده وهو بيقول إنه هيسيب حيكة يموت.

ترددت صيحات الجماهير أمام المستشفى:

ـ الدكاترة سابوا حيكة يموت، الدكاترة سابوا حيكة يموت.

لم أنتظر حتى يتحركوا فجريت إلى داخل المستشفى وهم جميعا خلفي، رأيتهم بطرف عيني وأنا أجري يحطمون كل ما

يقع تحت أيديهم: ممرضات، عمال، مكاتب، زجاج، أجهزة. أما عن الأطباء فكان أي واحد يوجد في الطريق يختفي تحت كتلة البشر التي تقفز فوقه. صرخت في فزع، أخذت أجري في طرقات المستشفى وهم يجرون خلفي، دخلت إلى واحد من العنابر لأختبئ فيه، كنت أسمع صوتهم وهو يأتي من بعيد:

ـ هو فين؟ الحقوه، جري من هنا، فتشوا العنابر.

تلفت حولي في فزع، وجدت واحدا من المرضى يجلس في سريره يتكلم في المحمول ويدخن سيجارة، شعرت بابتسامة شريرة ترتسم على وجهي وأنا أسأله:

ـ بتشرب سجاير في قسم الصدرية يا عصفور؟

أجاب بسماجة:

ـ المزاج بيحكم يا دكتور.

صِحت فيه غاضبا:

ـ ما ينفعش كده، روح اشرب السيجارة في الطرقة برة.

نظر إليَّ في ضيق، قام من مكانه بكسل وهو ينفخ:

ـ يا قاعدين يكفيكوا شر الجايين.

صرخت فيه متعجلا:

ـ يلَّا قوم فز.

تحرك عصفور في اتجاه الطرقة، نظرت إليه في خبث، اتسعت ابتسامتي أكثر وخلعت البالطو الأبيض وأعطيته له قائلا:

ـ خد يا عصفور ياحبيبي، الجو برد برة، البس ده يدفيك لغاية ما ترجع، وبعدين محدش هيكلمك وانت لابسه.

ضحك عصفور في سعادة وهو يلبس البالطو الأبيض في فخر، بدا عليه الامتنان وهو يقول:

ـ تسلم يا دكتور، والله إنت ابن حلال.

هززت رأسي مؤكدا:

ـ أمال يا عصفور! إنت حبيبي.

انتظرت إلى أن خرج من باب القسم، وقفزت في سريره وغطيت رأسي بالملاءة وأنا أمصمص شفتيَّ:

ـ مع السلامة يا عصفور، الله يرحمك!

الزواج

الزواج لدى أطباء «هيرو» قصة كبيرة وطويلة مستقلة بذاتها، عندما تجد أنك بعد أن أفقت من الدراسة والامتحانات والامتياز قد اقتربت من سن الثلاثين، والمشكلة طبعا تكون أكبر عند الطبيبات عندما يجدن كل زميلات الدراسة (اللاتي لم يلبسن البالطو الأبيض) تزوجن وأنجبن ويمشي معهن أولادهن عيال طويلة وحلوة (أطول من سنين الكلية)! تبدأ مشاعر الأنثى داخل البنت في الحركة بحثا عن الزوج، بينما تبدأ مشاعر الذكر في الحركة خارج الرجل بحثا عن الأنثى، وهنا تبدأ الزيجات في التوالي، والصفقة معروفة: زواج سعيد بين شاب «ضاربه» الطب ماديّا وشابة ضاربها «الطب» شكليّا، هذه هي أسعد الزيجات؛ لذلك فالمغفلون فقط يظنون أن الأطباء يتزوجون الطبيبات من باب العنصرية، السبب الأبسط أن الطب لا يترك فرصة لهم ولا لهن للزواج بأي أطراف أخرى إلا إذا كانوا وارثين أوي أو حلوات أوي.

بمجرد أن أنهيت سنة الامتياز قررت أن أكمل نصف ديني،

أنا شخصيًا أخطأت عندما قررت أن أتقدم للزواج بـ«دنيا» بنت الجيران والتي كانت تنظر إليَّ دائما نظرة مختلفة مليئة بالإعجاب طوال سنوات الدراسة لأنني كنت متفوقا في كلية الطب، المشكلة أنه بعد التخرج اتضح لي أن طالب الطب هو نجم الطلبة، لكن الطبيب ليس نجم العرسان، يومها أصر أبي الدكتور عرفان على أن أذهب إلى بيت أهل العروسة حاملا على كتفي البالطو الأبيض (من أجل البرستيج)، الحقيقة أنني أقنعته بصعوبة أن يقبل أن أتزوج «داليا»، فقد كان هو يرى أنني أصبحت من طبقة أخرى لمجرد تخرجي في كلية الطب، ظللت ألح عليه وهددته أنني لن أتزوج إذا أصر على ألا أتزوج بمن أريد، تدخلتْ أمي وأقنعَته بصعوبة بأن داليا بنت ناس طيبين وأباها موظف محترم، وأن الرك على النوايا مش على الوظائف.

المهم وافق أبي أخيرا بعد أن طلَّع عيني، ذهبنا لزيارة أبيها، الذي أبدى ترحيبا كبيرا بأبي، بينما جلس خالها (الذي عرفت بعد ذلك أنه طبيب وعارف اللي فيها).

لكن الدكتور مشتاق طبعا لم يكن يعرف؛ لذلك نظر إليهم بمنتهى القرف قائلا:

ـ إحنا جايين النهارده علشان نبلغكم إن ابني الدكتور عشمان قرر يتجوز بنتكم داليا، مبروك عليكم.

نظر إليه الأب في دهشة، غمزته أنا في ساقه اعتراضا على أسلوبه في الكلام، تجاهلني تماما:

ـ هي فين العروسة؟

دخلت داليا حاملة صينية الشربات، نظر إليها أبي بإعجاب وهو يقول:

ـ بسم الله ماشاء الله، لأ حلوة، بس هو يعني الجمال مش كل حاجة، إنتِ خريجة إيه يا داليا؟

ابتسمت داليا في حياء فدق قلبي وهي تقول:

ـ أنا خريجة تجارة يا عمو.

مط أبي شفتيه في امتعاض:

ـ تجارة، ابني عشمان خريج طب جامعة «هيرو». يعني كنتِ جايبة كام في الثانوية العامة؟

زاد توتر داليا وهي تجيب:

ـ خمسة وسبعين في المِية!

ضحك أبي ساخرا:

ـ خمسة وسبعين في المِية، ابني عشمان جايب تسعة وتسعين في المِية، لا مؤاخذة يابنتي بس إنتِ باين عليكِ على قدك أوي، وياترى بتشتغلي فين؟

أجابته في استياء:

ـ باشتغل في بنك.

هز رأسه في فهم:

ـ صرّافة فلوس يعني، والله يا بنتي أنا شايف الفرق بينكم كبير أوي، بس معلش القلب وما يريد.

تدخل الأب في حرج:

ـ يا دكتور مشتاق الست مالهاش إلا بيتها، وداليا ست بيت هايلة.

مط أبي شفتيه في استياء:

ـ أيوه يا أستاذ حمدي، لكن برضه، فيه حد أدنى للقبول.

تدخل خالها في الحوار غاضبا:

ـ جرى إيه يا دكتور، هي جوازة ولا مكتب تنسيق؟ ما تتكلم كويس.

ابتسم أبي في برود:

ـ لأ طبعا جوازة يا أستاذ، لكن بنشوف فيه تناسب ولا لأ، وياترى عملتِ ماجستير؟

هزت رأسها نافية دون أن تتكلم، فهز هو رأسه في استياء وهو يقول:

ـ ابننا بقى هياخد الماجستير، وبعدين الدكتوراه.

قاطعه خالها في حدة:

ـ قول لي بقى إنت يا عشمان، إنت بتشتغل فين؟

انجعص أبي في جلسته:

ـ في مستشفى الجامعة، ابني نايب في الكلية.

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة شريرة وهو يقول:

ـ ومرتبك كام يا شاطر؟

ابتلعت ريقي وأنا أقول بصوت مبحوح:

ـ ألف جنيه، لكن بيقولوا هيرفعوا المرتبات وتبقى ثلاثة ونص قريب إن شاء الله.

أجاب ساخرا:

ـ اعتبرهم بقوا أربعة يا سيدي، بنتنا مرتبها في البنك ستة آلاف جنيه يا حبيبي، يعني الفرق كبير برضه. وبتاخد بدلات؟

تقريبا لم يخرج صوتي وأنا أقول:

ـ حوالي خمستاشر جنيه بدل عدوى.

ضحك الرجل في استهزاء وهو يقول:

ـ بنتنا بتاخد ألفين جنيه بدلات كل ثلاثة أشهر. عندك شقة؟

ـ ....

ـ عندك عربية؟

ـ ....

ـ عندك فلوس في البنك؟

ـ ....

ـ عندك دم؟

هززت رأسي بالإيجاب في ثقة:

ـ أيوة يا فندم عندي دم.

أجاب في استفزاز وهو يضحك:

ـ يبقى تقوم أنت وأبوك وتورينا عرض كتافك، وانت يا دكتور، ابنك ده بقى تبروزه زي شهادة الطب بتاعته وتعلقه على الحيطة، وما تروحش تنطط بيه على بنات الناس، ده عاوز واحدة تشحت بيه، مش تتجوزه!

نظرت إلى داليا فأدارت وجهها بعيدا، أخذت أبي من يده وانصرفنا. ظل أبي يرغي طول الطريق متحدثا عن الناس المادية الذين لا يعرفون كيف يشترون رجلا، توقف عن السير فجأة وهو يسألني:

أجبته وأنا أبتعد:

ـ لا يابابا ماتقلقش أنا باخد أكتر منها، بس مش فلوس!

بعدها قررت ألا أتزوج إلا بعد أن تصبح عندي شقة وعربية وفلوس كتيييير، وطبعا لا أحتاج أن أقول لكم إنني لا زلت أنتظر حتى اليوم.

صاحب الكرامات

قررت أن أتفرغ بعد ذلك للطب ولا أفكر في الزواج مرة أخرى، والحقيقة أن سنوات النيابة مرت عليَّ بحلوها ومرها، والنائب في الكلية هو كائن مسكين مطلوب منه أن يُرضي ما يزيد على خمسين أستاذا في القسم، يدعو الله طوال الليل ألا يخطئ لأنهم لن يرحموه، ثم يدعو الله أن يهدي زوجاتهم واحدة واحدة بالاسم؛ لأن أي واحد فيهم يأتي «متعكنن» في الصباح سيجعل من النائب فرجة للقسم كله، ثم يدعو الله أن يحنن قلوبهم عليه ليتعلم منهم ما يحوله من إداري في القسم إلى طبيب حقيقي، طبعا أولاد الأساتذة يتعلمون من آبائهم في المستشفى، أما أولاد الناس الطيبين فيجب عليهم أن يتمحكوا ويتلزقوا ليجدوا من يعلمهم، أو ينتظروا معجزة من السماء على هيئة دكتور قلبه طيب يعلمهم لله!

طالما ذكرنا المعجزات يجب أن أقول لكم إن الطب مليء بالمعجزات ولا يعرف المستحيل، هذا ما تأكدت منه على مدى سنوات الدراسة وما بعدها، فكما أن المريض في مستشفى جامعة

«هيرو» يدخل حيّا ويخرج حيّا، هناك معجزات أخرى مثل معجزة أبو خطوة المبروك، لكن يظل صاحب الكرامات الأكبر والأشهر في الكلية في أيامنا هو زميلي الدكتور رشدي أباظة رشدي، نجل الدكتور أباظة رشدي الذي كان وزيرا للصحة في ذلك الوقت.

ورشدي لم يكن بالفعل إنسانا عاديّا، ظهرت كرامته البسيطة مبكرا عندما كان هو الطالب الوحيد الذي يجمع امتحانات الشفوي كلها في يوم واحد رغم أن ذلك غير قانوني، ورغم أننا كنا نبكي عندما نجد أن الفارق الزمني بين الامتحان والامتحان لا يتجاوز يومين لأن المناهج كبيرة تحتاج إلى مراجعة، بينما كان يكفي رشدي ربع ساعة بين الامتحان والآخر ليحصل على الدرجات النهائية.

الكرامة الثانية لرشدي أنه كان على ما يبدو يوحى إليه من واضعي الامتحانات، فقد كنا نراه يراجع قبل الامتحان ويتحدث في مواضيع معينة نجدها أمامنا في الامتحان رغم أنها مستبعدة تماما، وأصبح (مثل كل أصحاب الكرامات) ينعم على الغلابة من أمثالنا بسؤال أو اثنين من وقت لآخر، ولأن مجاورة الصالحين وأصحاب البركة تنعكس على سائر البشر فقد أصبحت فجأة وردة الجزار تتلقى الوحي وتحصل على الدرجات النهائية في الامتحانات في الفترة التي خطبها فيها رشدي بعد أن كانت تنجح بمقبول، لكن وردة كانت ساذجة؛ لذلك كانت تعطي صديقاتها الامتحان بالكامل مما أدى إلى انتشار شائعة بين غير

المؤمنين تقول إن الامتحان يتسرب، وعوقبت طبعا بانقطاع الوحي عنها ونزع البركة من ورقتها بمجرد أن فسخت خطوبتها مع رشدي أباظة.

ولم تنتهِ معجزات رشدي بانتهاء الدراسة، بل زادت لإثبات أنه ولي ابن ولي، كان أباظة أول طالب في الكلية يأخذ وظيفتين في الكلية رغم أنه بروح واحدة وجسد واحد، في البداية اختار الجراحة العامة، وأصبح نائبا في القسم لكنه «غير رأيه» بعد شهر واحد وبعد أن استلم الجميع وظائفهم، فقرر أن ينتقل إلى جراحة الأورام فوجد أن الوظيفة (سبحان الله) تنتظره، قضى هناك شهرًا واحدًا ثم قرر أن يعود إلى الجراحة العامة مرة أخرى، فوجد الوظيفة أيضا تنتظره، وظل يتنقل بين الوظيفتين اللتين تختلفان تماما (حتى في المكان) على مدى عام كامل، وكان كل من بالكلية مندهشين، المؤمنون من الطلبة كانوا يقولون كلمتين فقط: «سبحان الله»، أما الطلبة عديمو الإيمان والأخلاق من الليبراليين والعلمانيين فقد كانوا يقولون كلمة واحدة قصيرة مكونة من ثلاثة أحرف.

لكن أكبر معجزات الشيخ أباظة جاءت في آخر سنوات الماجستير، عندما دخل الامتحان مبكرا ستة أشهر لتفوقه وعبقريته، ثم جاءت المعجزة، فقد أعلنت الجامعة عن منحة لدراسة الدكتوراه في ألمانيا. طبعا أي مغفل من أمثالي كان يظن أن التقدم لهذه المنحة يستلزم حصولك على درجة الماجستير!

المعجزة التي هزت القلوب كانت في أن أباظة حصل على هذه المنحة وهو لا زال يمتحن الماجستير، واستلم شهادته بعد الامتحانات بأيام قليلة (قبل أن تُعلَن النتيجة رسميّا)، وسافر إلى ألمانيا تاركا خلفه كل أطباء الجراحة في الجامعة يضربون كفّا على كف. وبالرغم من أن أباظة دُفعتي، فإنني أنهيت الماجستير في نفس العام الذي عاد هو فيه من ألمانيا حاملا شهادة الدكتوراه المبروكة من ألمانيا!

المعادلة

وصلت إلى امتحانات الدكتوراه، ولأن الدكتوراه في الطب في جامعة «هيرو» شيء مخيف ومريع أكثر من حكايات أبو رجل مسلوخة وأمنا الغولة، كان لا بد أن أستعد لها جيدا، أول شيء كنت أحتاج أن أعرفه هو آلية النجاح في الدكتوراه في الطب، والحقيقة أن كل ما سيقولونه لك عن أن النجاح مستحيل، وأنه بلا أساس علمي، وأنه مبني على العشوائية؛ غير صحيح (بعد دراسة وافية ومستفيضة)؛ لهذا لا أريدك أن تصدق ما يدعيه بعض المغرضين والحاقدين على أساتذة الكلية، أنه لا توجد لديهم آلية واضحة للنجاح والرسوب، فالعبد الفقير وضع أول معادلة في تاريخ الطب المصري لهذا الأمر، وقررت أن أسميها «معادلة عشمان».

منطوق المعادلة:

$$\left(\frac{\text{ق.ع.ش}}{\text{أ.ر}}\right) \times \text{م} \times ١٠٠$$

فتح مخك لتفهم المعادلة التي يتم التعويض فيها كالآتي:

ق:

قوة ولي الأمر:

تتناسب طرديًا مع فرص النجاح.

• رئيس الوزراء أو وزير التعليم أو العميد أو رئيس قسم قوي أو أستاذ في نفس القسم = ٥

• أستاذ في الكلية ـ رئيس قسم عادي ـ رتبة كبيرة في الشرطة ـ عضو مجلس شعب ـ باقي الوزراء = ٤

• قريب أو صديق لأستاذ قوي أو توصية قوية من أي جهة =٣

• شخص عادي من مخاليق ربنا = ٢

• شخص بينه وبين رئيس القسم مشاكل = ١

ع:

عدد مرات دخول الامتحان.

كلما زادت مرات الدخول زادت فرص النجاح.

ش:

شطارة الطالب:

كلما ترفع مستوى الطالب زادت فرصه في النجاح مع احترام باقي العوامل في المعادلة.

عبقري = ٤

شاطر أوي= ٣

شاطر شوية= ٢

مش شاطر قوي =١

مش شاطر خالص=٠

الرقم الناتج من حاصل الضرب السابق يقسم على متغيرين:

أ:

اسمك في المجال:

كلما زادت شهرتك طبيبا قلّت فرص النجاح.

غير معروف = ١

غير معروف بس شكله هيبقى كويس= ٢

نصف معروف=٣

معروف = ٤

مشهور= ٥

ر:

رأي الممتحن فيك:

كلما شعر الممتحن بأنك محترم وابن ناس زادت فرص نجاحك.

ابن ناس مهمين = ١

ابن ناس محترمين= ٢

ابن ناس عاديين= ٣

مش ابن ناس=٤

ابن ستين في سبعين=٥

يتم ضرب الحاصل النهائي من السابق في م؛ حيث م مزاج رئيس القسم:

ليه مزاج ينجحك = ١

مالوش مزاج ينجحك= صفر

طبعا بمنتهى البساطة يمكن الآن معرفة أساسيات النجاح، مع الوضع في الاعتبار أن رئيس القسم إذا لم يكن له مزاج في نجاحك فسيكون حاصل ضرب أي رقم في صفر بصفر، ويبقى حاول مرة أخرى!

لذلك إذا أردت الحصول على الدكتوراه بغير أن تكون من أولاد الأساتذة «وأولاد الناس» يجب أن تتبع واحدة من طريقتين؛ الطريقة الأولى هي طريقة «فوق الشوك مشَّاني زماني»، وهي

مبنية على أن تدخل الامتحانات مرة ومرة ومرة وتصبح خاضعا للمعادلة المذكورة، وعليك احتمال كل السخافات وقلة القيمة التي ستراها. تلف وتدور على أساتذة القسم واحدا تلو الآخر، وتحتمل ما سيحدث لك إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا وتنجح. أنا شخصيّا عندما دخلت إلى امتحانات الدكتوراه لأول مرة كنت مفعما بالأمل، كنت بالرغم من كل ما مررت به لا أعتقد إن أساتذة الكلية لديهم أي مصلحة في نجاح أو رسوب غلبان مثلي، واستمعت إلى نصائح صديقي أبو خطوة المبروك (الذي حصل على الدكتوراه منذ سنوات طويلة)، والتي كانت تقول إن الأمر بسيط وإن كل ما عليَّ هو أن أذاكر جيدا وربنا يوفقني، وتجاهلت كل تحذيرات زملائي من غير أولاد الأساتذة والذين نصحوني بأن «أضرب سيجارتين حشيش قبل الامتحانات لكيلا أصاب بانهيار عصبي كما حدث لزميلنا عمر الضعيف، والذي أصبحنا نراه يرتدي جلبابا من الكستور أبيض بخطوط طولية خضراء ويقف أمام بوابة قصر العيني لينظم المرور بعد أن فقد أصابع يديه وقدميه في حادث غير معروف». رفضت اتباع نصائحهم وذهبت في أول يوم امتحان مبتسما، وقفت أمام قاعة الامتحان أراجع المادة التي سأمتحن فيها، كنت قد انتهيت من قراءة معظم المنهج ولم يبقَ لي سوى جزء صغير لا يزيد على خمسمائة صفحة قررت أن أقرأها في الصباح على باب اللجنة كما يفعل كل طلبة الطب في جامعة «هيرو» على مدار جميع سنوات الدراسة من المهد وحتى اللحد، أي من سنة أولى حتى

الدكتوراه، عندما وصلت إلى الصفحة مائتين وخمسين وجدت رجلا مُسنًّا يمشي بصعوبة متجها إلى قاعة الامتحانات، نظرت في الساعة فوجدت أنه لا زال أمامي ربع ساعة يمكن أن أقرأ فيها مائة وخمسين صفحة على الأقل، لم يكن الأمر يحتاج إلى تفكير طويل، فالرجل يحمل أوراقا كثيرة فهمت أنها أوراق الامتحان، وفهمت أنه واحد من واضعي الامتحان، وقفت أفكر هل آخذ بيده وأساعده في الدخول أم أتركه وأركز فيما أفعله، لكن عادة ما تكون الرغبة في عمل الخير مسيطرة على كل طلبة الطب قبل الامتحانات، فأنت على وشك الدخول في كرب عظيم ولن تنجو منه بعملك، ليس لك إلا رحمة ربنا، ومن لا يَرحم لا يُرحم. تركت الكتاب الذي كان في يدي وتوجهت إليه مبتسما:

ـ أساعدك يا دكتور؟

ـ كتر خيرك يا ابني.

أمسكت بذراعه وسِرنا على مهل، تمنيت أن يكون أستاذا عندنا في القسم لكنني استبعدت ذلك، سألته في فضول:

ـ هو حضرتك أستاذ إيه بالضبط؟

نظر إليَّ في تواضع وهو يقول:

ـ أنا أشتاذ في قشم الأطفال يا ابني.

ـ وحضرتك اللي حاطط الامتحان؟

هز رأسه نافيا:

ـ لأ يا ابني، أنا حاطط شؤال واحد لكن لازم أكون موجود علشان لو حد شأل، محدش بيحط الامتحان على بعضه، كل واحد بيحط شؤال، إنت أول مرة تدخل الامتحان ولا إيه يا ابني؟

هززت رأسي مؤكدا فابتسم في طيبة:

ـ ربنا يوفقك، إديني اشمك ورقم جلوشك وأنا هاوشي عليك، إنت من قشم إيه؟

ـ قشم المشالك، قصدي قسم المسالك يا دكتور.

أخرجت من مقلمتي الكبيرة التي تحتوي على أقلامي والأستيكة والمسطرة، قلمًا وكتبت على ورقةٍ رقمَ الجلوس. نظر إليها في تدقيق وهو يقول:

ـ إن شاء الله خير يا ابني، إنتم مين رئيش القشم عندكم؟

أجبته في أمل:

ـ الدكتورة عباسة حضرتك.

ضحك في ابتهاج، فانتابته نوبة من الكُحة التي خفت أن تقصف عمره قبل أن يوصي عليَّ، جريت وأحضرت له كوبا من الماء شربه على مهل ثم قال:

ـ البت عباشة بقت رئيشة قشم؟ دي كانت بتلعب في

المشتشفى وإحنا مدرشين، إنت ولد كويش وأنا هاقف جنبك إن شاء الله!

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسامة البلهاء الواسعة التي التصقت على وجهي بإلحاح، وشعور الراحة الذي انتابني، لأول مرة بعد كل هذه السنوات ستكون لي توصية في امتحانات في هذه الكلية التي لا ترحم. كنت أعرف أن نجاحي من أول مرة طبقا للمعادلة الأزلية مستحيل، لكن على الأقل «شوية رحمة». في ذلك اليوم عرفت أن أولاد الأساتذة والبهوات يدخلون الامتحانات بنفوس غير التي ندخل نحن بها، يدخلون بنفسية طالب يدخل الامتحان وهو يفكر في النتيجة، بينما نحن ندخل الامتحانات وكل ما نريده إن ربنا يسترها معانا ونخرج بدون قلة قيمة. عموما أنا ولأول مرة «مسنود»، والله وضحكت لك الدنيا يا عشمان، ومن صبر نال، والخير ما يجبش غير الخير!

سألته في تردد:

ـ هو اسم حضرتك إيه يا دكتور؟

أجاب بهدوء:

ـ قول لها عبد الرحمن الشيخ، هي هتعرفني.

بعد قليل كنت جالسا في قاعة الامتحان، أتذكر كلمة الدكتور حامد «الله يخرب بيت اللي دخل قبلي ولا قاليش واللي دخل بعدي وماسمعش كلامي». بعد كل هذه الامتحانات مازلت أشعر

بالرعب وأنا في قاعة الامتحان التي دخلتها عشرات المرات قبل ذلك، بدأ الأساتذة يتوافدون واحدا تلو الآخر، كل واحد منهم يمسك في يده بمظروف كبير يحوي أوراق امتحان مادته، عندما رأيت الدكتورة عباسة بتكشيرتها الشهيرة سقط قلبي في رجلي، تشاغلت بالفرجة على باقي الزملاء في الامتحانات، أعمارهم متفاوتة لدرجة أن هناك رجالًا شعورهم بيضاء ورجالًا شعورهم وقعت منذ زمن، وسيدات يشبهن مرضعة قلاوون التي لا أعرف كيف كانت تبدو ولكن لا بد أن شكلها كان كده. بدأت التعليمات تتوالى: كل واحد يبص في ورقته، سطروا ورقكم كويس، اكتبوا بخط حلو، راجعوا كويس قبل ما تخرجوا، السؤال اللي ما تعرفوش سيبه وحل اللي بعده وبلاش فتي!

اقتربت مني الدكتورة عباسة ووضعت الورقة أمامي مقلوبة. استجمعت شجاعتي وأنا أهمس لها:

ـ الدكتور عبد الرحمن الشيخ بيسلم على حضرتك.

نظرت إليَّ بدهشة، ابتسمت ابتسامة صفراء وهي تقول:

ـ خليك في الامتحان.

هززت رأسي في سعادة، يبدو أنه كلمها لكن لا بد أن تكتمل التمثيلية.

جاء صوت رئيس اللجنة صارما:

ـ محدش يقلب ورقته، قدامكو خمس دقايق تسطروا الكراريس وبعدين هنبدأ.

تحركت في حماس وبدأت في تسطير ورقتي، سمعت صوتا خافتا يأتي من ورائي:

ـ بش، بش، بش!

لم ألتفت خوفا من المراقبين، لكن الصوت بدأ يعلو:

ـ بششششششششششش.

تجاهلته مرة أخرى فعلا أكثر:

ـ بش، يا واد يا عشمان.

التفت في دهشة، لأجد الدكتور عبد الرحمن الشيخ يجلس على «الديسك» الموجود خلفي باثنين على اليمين وينادي:

ـ معاك مشطرة زيادة يا عشمان؟

أجبته بفزع:

ـ إيه يا دكتور عبد الرحمن، إنت إيه اللي جابك هنا، إنت مش ممتحن؟

هز رأسه في خجل:

ـ لأ يا شيدي. أنا زفت طالب، المرة دي المرة الشبعة وتلاتين.

قلت له غاضبا:

ـ وبتقولي إنك ممتحن ليه؟

ـ اتكشفت منك يا أخي، وبعدين أنا أعرف منين إنك هتطلع قاعد جنبي؟ إديني بقى مشطرة وقلم رشاش، خليك جدع.

شعرت بالغضب فأجبته في حدة:

ـ معييش، هي مسطرة واحدة.

أجابني وهو يبتسم في برود:

ـ لأ، معاك اتنين؛ واحدة عليها شبيدرمان والتانية عليها شبونج بوب، أنا شفتهم وإنت بتفتح المقلمة برة، إديني بتاعة شبونج بوب وخليك جدع.

هممت بأن أجيبه إلا أن صوت الممتحن جاء حادّا:

ـ بص في ورقتك يا طالب إنت وهـوَّ، وأنـت يا حاج عبد الرحمن، ناوي تطّرد المرة دي كمان؟

أجاب هو بخوف:

ـ لأ والله يا دكتور، أنا بش باشتلف مشطرة.

ناولته مسطرة سبونج بوب في استسلام وأنا أغمغم في حسرة:

ـ يا فرحة ما تمت!

مرت امتحانات الدكتوراه بحلوها ومرها، لن أحكيها لأنها

تتشابه مع ما حدث لي في امتحانات الكلية، لم يجِدّ عليها إلا شيئان: الشيء الأول أنني في أول ثلاث مرات دخلت للدكتورة عباسة في الشفوي واتضح أنها تمتلك ذاكرة قوية بما يكفي لتسألني: من هو الدكتور عبد الرحمن الشيخ؟ وبالطبع لم أجد ردّا، وتحول اسم عبد الرحمن الشيخ إلى لعنة تطاردني في كل امتحاناتها. كانت تسألني فأسكت فتنقض عليَّ لتسلخني بسلسلة من الأسئلة ثم تطردني بغضب، فأخرج من اللجنة وأنا ألعن أهل الدكتور على الشيخ، وأراه في لجان الامتحانات التحريرية فأعطيه مسطرة سبونج بوب الذي طلب مني أن أحتفظ له بها إلى أن أصابته جلطة في المخ (الله يرحمه) في أثناء أدائه الامتحان في المرة الأربعين له والثالثة لي، حضرت جنازته وبكيت عليه وأنا أضع المسطرة إلى جانب رأسه وأدعو له بالرحمة. هنأته قبل الدفن بالدكتوراه الشرفية التي منحتها له الجامعة بعد وفاته تكريما له؛ لكونه صاحب الرقم القياسي في عدد مرات دخول امتحان الدكتوراه في الجامعة، ودفعت نصف راتبي في اللافتة المضيئة التي وضعتها على قبره (رغم اعتراض أسرته) والمكتوب عليها

هنا يرقد الدكتور

عبد الرحمن الشيخ

عميد طلبة الدكتوراه

كلية الطب ـ جامعة هيرو

المهزلة

الشيء المهم الذي لاحظته في الامتحانات هو أن مزاج الممتحنين في الشفوي يختلف من سنوات الدراسة العادية عن الدكتوراه، ففي أثناء الكلية تشعر أنك مجرم، الممتحن قاسٍ، غاضب، يعاتبك على جهلك. أما في امتحانات الدكتوراه فالقاعدة الذهبية لمعظم الممتحنين (الأشرار) هو أن تشعر بأنك مجنون! بمجرد أن تنتهي من الإجابة تجد الممتحن ينظر إليك في دهشة وهو يرسم على وجهه ابتسامة ساخرة، والإعجاز العلمي لدى الممتحنين يظهر عندما يكون السؤال سهلا وتظن أنك ستجيب بسهولة، لكن تكتشف أن الإجابة غير وافية. عرفت مثلا في أثناء الامتحانات حقيقة حكاية الدكتور عمر الضعيف الذي ينظم إشارات المرور في شارع قصر العيني، فقد بدأ الأمر معه في أول مرة عندما سأله الدكتور شمروخ في بساطة:

ـ الإنسان عنده كام صباع؟

أجاب عمر وهو يرتعش:

ـ عشرة يا فندم!

انفجر الممتحن في الضحك وهو يقول:

ـ عشر صوابع؟ بس كده؟ وعاوز تاخد الدكتوراه؟

ثم رسم على وجهه تكشيرة مخيفة وهو يسأله:

ـ كام صباع يا دكتور؟

فكر عمر طويلا ثم قال بصوت متحشرج:

ـ عشرين يافندم، لو زودنا عليهم صوابع رجليه.

سأله الممتحن وهو ينظر في عينيه بحدة:

ـ عشرة ولا عشرين؟ هو ده سؤال يستحمل إجابتين؟

اضطرب عمر أكثر وأخذ يفكر ويفكر فصرخ الدكتور شمروخ:

ـ هي دية عاوزة تفكير، رد.

طبعا لم يجب عمر من الرعب، أخذ الدكتور شمروخ يضحك وهو ينادي المدرسين الموجودين في القسم:

ـ تعالوا اتفرجوا على المهزلة، عاوز ياخد دكتوراه وهو ميعرفش البني آدم عنده كام صباع.

طبعا كل الأطباء الصغار وقفوا يضحكون على ضحك

الدكتور شمروخ (بالذوق أو بالعافية)، وظل عمر محجوزا في غرفته لمدة تقترب من الساعة وهم جميعا يضحكون عليه، ثم طردوه شر طردة. تكرر الأمر معه في كل مرة يدخل فيها الامتحان، في المرة الثانية قال: عشرًا وأصر عليها فطرده الدكتور شمروخ مرة ثانية، وفي المرة الثالثة قال له: عشرين فطرده أيضا، وفي المرة الرابعة: سأله: أصابع اليدين، أم القدمين؟ فطرده قائلا:

ـ أنا اللي باسأل هنا.

وفي المرة الخامسة أجابه:

ـ لو بنتكلم عن الإيدين فقط فالإجابة عشر، ولو إيدين ورجلين يبقوا عشرين.

فأخرج الدكتور شمروخ من جيبه ورقة صغيرة مكتوبًا فيها:

عدد أصابع الإنسان:

أ ـ عشر.

ب ـ عشرون.

ج ـ ثلاث وعشرون.

وقال:

ـ حط علامة على الإجابة الصحيحة من غير لماضة.

وطبعا كانت الإجابات الثلاث في رأيه خطأ، فطرده.

في المرة السادسة، جاء عمر مرتديا جلبابًا ملطخا بالدماء وهو يضحك في جنون حاملا كيسا بلاستيكيًا فيه أصابع يديه وقدميه، وعندما سأله الدكتور شمروخ نفس السؤال وضع الكيس أمامه وهو يقول ضاحكا:

ـ أهم عِدّهم إنت بقى براحتك يا فندم.

ثم انطلق يجري في الشوارع وهو يضحك، وظهر بعد أيام في إشارات قصر العيني بجلبابه وصفارته لينظم المرور، ولم يعرف أن ما فعله في آخر مرة اعتبره الدكتور شمروخ إجابة صحيحة ومنحه الدرجة النهائية في الاختبار، وعندما عرف أنه جُن هز رأسه في أسًى وهو يقول:

ـ يا خسارة، مع إنه كان ولد كويس!

لذلك فأنا أحمد الله كل يوم ألف مرة على أنني أنهيت الدكتوراه ولم أمت مثل الدكتور عبد الرحمن ولا جُننت مثل الدكتور عمر الضعيف. أي نعم، أنا أضعت من عقلي وعمري اثني عشر عاما إلا أنني لا زلت حيًا وعاقلا، والحمد لله.

الأعقل مني في موضوع الدكتوراه كان زميلنا الدكتور أبو زيد الهلالي، والذي أسميت طريقته على اسمه «طريقة أبو زيد»، والذي قرر منذ البداية أنه لن يحصل على الدكتوراه المصرية بل سيتجه إلى أعلى، وكانت نظريته أن هذه الشهادات وإن كانت أصعب إلا أنها ستكون أقرب لأنها امتحانات منطقية ومعروف

أولها وآخرها، كما أنها مُعترف بها في كل دول العالم، بينما الدكتوراه المصرية معترف بها في مصر ومدغشقر وغينيا بيساو فقط. كلنا نهيناه عن ذلك واعتبرناه مجنونا لأنه لن يحصل على دكتوراه أم الدنيا، لكنه أصر وسافر إلى الخارج إلى أن حصل على الزمالة البريطانية من إحدى الجامعات البريطانية وعلى شهادة البورد الأمريكي. المشكلة التي واجهته هي أنه كان مدرسا مساعدا في الجامعة، وكان لا بد أن يعادل شهاداته الأجنبية بالدكتوراه المصرية ليحصل على ترقياته.

عاد أبو زيد الهلالي حاملا شهاداته الأجنبية ومقتنعا بأنه «جاب التايهة»؛ ظانّا بأنه فلت لمجرد أنه نجح في الزمالة والبورد. دخل على رئيس القسم بمنتهى الثقة وهو يقول:

ـ أنا خدت الزمالة يا فندم.

ابتسم رئيس القسم:

ـ برافو يا أبو زيد، عقبال البورد الأمريكي.

أجاب أبو زيد الهلالي بفخر:

ـ ما أنا خدت البورد كمان يا فندم.

نظر إليه الرجل في دهشة، ثم قام وخبط على كتفيه في فخر:

ـ ما شاء الله، ما شاء الله، برافو عليك، يلّا شد حيلك في الدكتوراه المصرية علشان تترقى.

بدا على أبو زيد التردد وهو يقول:

ـ يا دكتور ما أنا ناوي أعادل الشهادات الأجنبية دية بالدكتوراه المصرية.

ضحك الدكتور ساخرا:

ـ تعادل إيه يا ابني؟ شهادات أمريكا وأوربا دية ما تنفعش في مصر، إحنا الطب عندنا مختلف، يلّا يا ابني ربنا يهديك، روح ذاكر علشان الامتحان قرب.

أصر أبو زيد على موقفه:

ـ يافندم أنا عاوز أعادل الدرجة.

رد عليه في غضب:

ـ إيه يا ابني انعدام الانتماء والوطنية ده؟ يعني إنت تروح تاخد شهادة من أمريكا وشهادة تانية من إنجلترا، ومش عاوز تاخد مننا إحنا كمان!

ـ يافندم أنا طول عمري باخد شهادات من مصر، كفاية بقى.

صرخ رئيس القسم:

ـ إنت مش عاجباك مصر؟ إنت عميل وممولّ، وهتاخد الدكتوراه المصرية يا أبو زيد يعني هتاخد.

هز أبو زيد رأسه:

ـ لأ مش هاخد تاني، وبيني وبينكم المحاكم.

نظر إليه في تحدٍّ:

ـ يبقى هاجرجرك في المحاكم يا أبو زيد وهسيبك كده متعلق، لا إنت معاك الدرجة ولا معكش، وأنا وانت والزمن طويل.

وبدأ مشوار أبو زيد في المحاكم، بين الجنح والجنايات ومحكمة الأسرة ليثبت أن ما حصل عليه يساوي الدكتوراه المصرية، وكل قاضٍ يحيل إلى خبير، وكل خبير يحيل إلى أخبر منه، وأبو زيد الهلالي يقف كالأسد في المحاكم ويدفع للمحامي كالقط. استغرق الأمر أربع سنوات إلى أن حصل أبو زيد على حريته؛ أي على المعادلة، وسنتين إضافيتين للحصول على النفقة التي هي التعويض عن تأخير الدرجة، وافتتح بالنقود التي حصل عليها مكتب محاماة بعد أن أصبح خبرة في القانون وبعد أن نسي الطب الذي تعلَّمه في أمريكا وإنجلترا.

أما أنا فبعد حصولي على الدكتوراه انتظرت أن يحدث لي شيء جديد، يومًا بعد يوم بعد يوم لكن لا شيء، بدأت أدرس أحوال الناس من حولي لأكتشف أنني بالفعل شربت البالوظة. هناك مئات الدكاترة الذين حصلوا على الدكتوراه ويعملون في الجامعة «ومش لاقيين ياكلوا». عادي كل شيء نصيب، اللافت للنظر في الأمر أنني اكتشفت أن هناك من البشر من ضحوا بالطب وبأبي الطب وبأم الطب وكانت النتيجة بسم الله ماشاء الله زي الفل!

طبعا أشهر تغيير للوظايف في الطب معروف هو مجالان لا ثالث لهما؛ الأول هو أن تتحول إلى مُدرس في مدارس اللغات أو الأمريكان أو «IG»، وهنا تظهر عبقرية خاصة جدًا لنا في مصر، فالمدرسون يحاولون دائما أن يكونوا «دكاترة»، فيمنحون أنفسهم اللقب كما فعل أبي، بينما الدكاترة يهجرون الطب ويعملون مدرسين (ومحدش راضي بحاله)، المفارقة الأهم أن أصدقائي الذين يعملون في التدريس الأجنبي بالذات الذين اقتحموا مجال الدروس الخصوصية يقبضون بالساعة، ويقال إن الساعة لدى بعضهم وصلت إلى ألفَي جنيه، بمعنى أن ساعة تدريس ولا شهر طب وسلملي على «ابن سينا وأبقراط». المجال الثاني والأشهر وهو الذي كانت لي أنا شخصيًا فيه تجربة قصيرة، هو القفز إلى شركة من شركات الأدوية!

المندوب

الفارق الذي رأيته بين شركات الأدوية والطب في بداية العمل واضح وجليّ، ببساطة الوظيفتان عكس بعض في كل شيء (ده في مدينة «هيرو» بس)، وبمقارنة علمية سريعة تكتشف الآتي:

ساعات العمل:

الطبيب حديث التخرج لا يعرف عدد ساعات عمله ولا المطلوب منه إيه، بينما في شركات الأدوية أنت موظف بمواعيد.

المذاكرة:

في الطب هتذاكر لما تتمقق عينيك، بينما في شركات الأدوية المذاكرة على القد والقراية على القد.

الحركة:

شركات الأدوية هتطلب منك زيارات كتير لأماكن مختلفة «وهيدوك عربية» ويدوك بنزين العربية، بينما المستشفى مش

هيخرجوك منه إلا علشان تروح تنام «وهيدوك على دماغك» وهتصرف دم قلبك كل شهر.

السفر:

شركات الأدوية هتسفرك برة كتير، لدرجة إنك تزهق من السفر، بينما في المستشفيات بتبقى هتموت وتروح راس البر بس مش عارف.

الفلوس:

شركات الأدوية هتديك فلوس كويس، بينما المستشفى هيخليك شحّات.

البرستيج:

برستيج الدكتور في مصر جامد ونفخته الكدابة جامدة أوي، بينما النظرة إلى «مندوب» الدعاية في الأدوية «مش قد كده».

من يتلقى الخدمة:

الدكتور بيقعد قدام العيان باشا، بينما المندوب بيقعد قدام الدكتور والدكتور هو اللي باشا!

ملحوظة: تظل هذه المقارنة سارية حتى ثلاث سنوات من العمل، بعدها بتتلخبط الأمور، وبمجرد ترقية المندوب وحصول الدكتور على الماچستير تصبح الأمور سَلَطة، وإنت وحظك!

العيوب التي تواجه الطبيب المصري عندما يقرر تغيير مجاله من العمل في الطب إلى العمل في شركات الأدوية كثيرة ومعروفة، أشهرها على الإطلاق: كلام الناس، الاستخسار، التنطيط بتاع الدكاترة.

كلام الناس مقصود بيه هو إنك تحولت من دكتووووووور، إلى بتاع أدوية، وهي النظرة المصرية الشهيرة، والتي ستنعكس في خيبة أمل الأم والأب الذين كانوا ينتظرون الفشخرة بك والحجز عندك في أي وقت، وستنعكس في سؤال خطيبتك الاستنكاري «وهتسيب الطب؟»، كما لو كان شغلك في شركة الأدوية سيكون بشهادة الثانوية العامة وليس بشهادة الطب نفسها. نأتي إلى الجانب الخطير في الموضوع: التنطيط بتاع الدكاترة.

سيبدأ التنطيط من الواطيين من أصدقائك مع إعلانك الخبر، بطريقة «لا يا أخي إنت خسارة»، أو بطريقة «إنت بتهزر؟»... وهكذا. كل هذا لا يهم، المهم هو أنك عندما تتسلم العمل سيكون مطلوبا منك أن تزور أطباء أي بشر (أشكال وألوان)، فمنهم اللطيف والرغاي والبارد والبصباص(للبنات فقط)، وأنت مطالب بأن تتقبلهم ببلاويهم لأنهم زباين، ومنهم المتكبر السمج مثل الدكتور هادي البياض. أنا شخصيًا كنت قد فكرت في أن أعمل في شركة أدوية، بدأت معهم وأنا في سنة الامتياز، أخذنا تدريبا في فندق خمسة نجوم، وأكلا وشربا وآخر حلاوة، الناس كلها نظيفة جميلة، والمرتب كان محترما، بعد التدريب

انتقلنا إلى مرحلة التطبيق. أول يوم سأنزل زيارة (مزدوجة) مع واحد أقدم مني في الشركة (أتعلم منه)، نظرت في الساعة، كانت السادسة تماما، وكان الأهلي سيلعب مباراة مع الزمالك الساعة ١٠، "جميل كده هالحق أروَّح اتفرج عليها". جاء الدكتور إيهاب واضعا سيجارا في فمه وهو يشرح لي كيفية التعامل مع الشخصيات المختلفة. تفحصته بإعجاب، فقد كان شكله (باشا ابن باشا)، بدأت أنصت إليه جيدا، التعليمات:

• أهم شيء في الـ«Medical Rep» المظهر اللائق واللباقة والخلفية العلمية.

• يجب أن تعرف الـ«Type» بتاع الدكتور اللي بتزوره علشان تعرف تدخله منين.

• كن ملاحظا جيدا لكل ما يدور من حولك «be a good observer».

• يجب أن تعرف أنـك تمثل شركة دواء عالمية «multinational»، وأن الطبيب هو الذي يحتاجك.

ـ عندك أي أسئلة؟

بدا عليه الاستياء عندما هززت رأسي مبتسما:

ـ هنلحق ماتش الأهلي والزمالك؟

المهم وصلنا إلى عيادة الدكتور هادي، العمارة أنيقة وهو في

الدور الخامس، بمجرد دخولنا إلى العيادة بدأ الدكتور إيهاب في التحول، اختفت نظرة الثقة والكبرياء من على وجهه وظهرت بدلا منها المسكنة الشديدة. اقترب من سكينة سكرتيرة الدكتور وأخرج من حقيبته منديلًا بأوية وترتر مكتوبًا عليه اسم الشركة وأعطاه لها وهو يقول:

ـ اتفضلي ياست سكينة، المنديل أبو أوية اللي طلبتِه مني.

نظرت إليه سكينة بقرف وهي تقول:

ـ إيه ده؟ أحمر؟ أنا مش قايلة لك عاوزاه بمبي مسخسخ.

ابتسم في حرج وهو يقول:

ـ حاولت والله يا ست سكينة، بس سياسة الشركة بتمنع الألوان دية.

ضحكت بصوت رقيع وهي تقول:

ـ سياسة الشركة! طيب اقعد يا أخويا إنت وصبيك لغاية ما الدكتور يقابلكم.

حاولت الاعتراض على كلمة صبيك، لكن إيهاب أشار لي لأسكت، حتى هذه اللحظة كان حلم دخولي للطبيب في فخر وأنا أحمل الحقيبة السوداء يراودني، لكن نظرات المرضى الجالسين في العيادة لم تكن مُرحبة ولا فخورة كما كنت أظن، على العكس كانوا ينظرون إليَّ باحتقار كما لو كنت «عيل رخم»

يتسلل ليأخذ دورهم في طابور العيش، بل إن سيدة من الكبار قامت تسأل سكينة في غضب:

ـ همَّ المندوبين هيدخلوا قبلنا ولا إيه؟

هزت سكينة رأسها في تأكيد وهي تقول:

ـ لأ طبعا، هيدخلوا في دورهم!

في تلك اللحظة عرفت أننا لا نُصنف عند المرضى ولا عند السكرتيرة «دكاترة»، بل مندوبي مبيعات كالذين يدورون بشرابات وأمشاط وفلّايات في الأتوبيس. مِلت على إيهاب معبرا عن غضبي فأجابني بثقة:

ـ سيبك منهم، جهلة، المهم الدكتور.

في حدود الساعة التاسعة كان كل المرضى الذين جاءوا قبلنا دخلوا، لعنت الطبيب في سري وأنا أستعد للدخول، لكن في تلك اللحظة وصل ثلاثة آخرون من المرضى، فوجئت بهم يدخلون واحدا تلو الآخر، عبرت عن غضبي للست سكينة فأجابت بغضب أشد:

ـ أنا مالي، الدكتور هو اللي قال.

أشار إليَّ إيهاب لأسكت وأنتظر إلى أن يتعطف علينا الدكتور هادي ويسمح لنا بدخول الجنة، قصدي المكتب.

عندما تخطت الساعة العاشرة بدأ توتري يزيد، كنت أريد أن

أشاهد حتى الشوط الثاني من الماتش الذي بدا لي ساخنا وأنا أسمع صرخات الناس وتهليلهم من الشارع، فلسوء الحظ كان تلفزيون الأستاذ الدكتور هادي بايظ في ذلك اليوم، وكلما زاد التهليل زاد توتري إلى أن دخلنا إلى الدكتور هادي بك وكانت الساعة قد تخطت الثانية عشرة.

كان دمي يغلي من طول الانتظار ومن المباراة التي ضاعت عليَّ، تمتمت بألفاظ غير لائقة وأنا أسمع إيهاب يقول بصوت مليء بالنفاق:

ـ مساء الخير يابيه.

كنت قد تعلمت موضوع «بيه» منذ زمن طويل في الكلية، كل الأساتذة بهوات، ونحن أولاد البطة السوداء لحين إشعار آخر، اتجهنا إلى الكراسي المواجهة، أشار إلينا الدكتور هادي البياض في لا مبالاة وهو يقول:

ـ إنتو هتقعدوا ولا إيه؟ يلَّا سيبوا اللي معاكم واتكلوا على الله، مش عاوزين نضيع وقت!

فوجئت بإيهاب يُخرج عينات الدواء ويضعها على المكتب أمامه في هدوء وهو يقول مبتسما:

ـ نَفَس سعادتك معانا يا دكتور.

ثم سحبني من يدي قبل أن أتكلم وخرجنا من المكتب وأغلق الباب بهدوء. كنت أشعر بأن دمي يغلي في رأسي، ويبدو أن إيهاب شعر بذلك فلم يوجه إليَّ كلمة واحدة، بل اتجه إلى مكتب السكرتيرة. كانت سكينة تقف أمام المرآة وهي ترتدي المنديل الأحمر على رأسها فابتسم إيهاب وهو يقول:

ـ بسم الله ما شاء الله، هياكل من راسك حتة!

ضحكتْ نفس الضحكة الرقيعة، فضحك معها إيهاب، لم أستطع أن أقاوم، انتهزت فرصة انشغال إيهاب وجريت على المكتب وفتحت الباب، دخلت وأغلقته بالمفتاح من الداخل، نظر إلى الباب في دهشة فقلت في غضب:

ـ بقى تسيبنا بره ست ساعات، وتقول لنا مش عاوزين نضيع وقت؟

صاح الدكتور هادي في خوف:

ـ إنت مجنون ولا إيه؟ يا سكينة، يا سكينة.

خرجت مني ضحكة شريرة وأنا أقول:

ـ سكينة مش هتنفعك، ليلتك سودة!

أجابني باستعطاف:

ـ أؤمر يا دكتور، إنت بتشتغل على دوا إيه؟

نظرت إليه في صمت للحظات، ثم نظرت إلى علب الدواء التي كانت لا تزال على المكتب:

ـ دوا مُلين يا دكتور، اللي مرمي قدامك على المكتب ده!

خرجت بعد عشر دقائق بعد أن بلع الدكتور هادي عشرين قرصا من المُلين (قرصا قرصا) أمامي. وجدت إيهاب يقف مرتعشا فألقيت في وجهه الحقيبة، وخرجت أضحك وسكينة تصرخ عندما نزعتُ المنديل من فوق رأسها. أخذت نفسا عميقا وأنا أواصل ضحكي متخيلا الدكتور هادي وهو يقضي نفس الساعات الست في الحمام منتظرا الفرج!

البداية

استسلمت لروتين الحياة وانتظمت في عملي طبيبا جامعيّا أعزب يعيش في بيت أبيه، انتقلت من درجة إلى أخرى بدون أن أتعلم المهنة بعد أن وفى رئيس القسم بوعده في موضوع قطع الماء والنور عني.

لكن الأمور كانت مستقرة، الكلية صباحا ومحل عطارة الدكتور مشتاق الذي شاركت أنا في تطويره كثيرا قبل أن تفسد أبي الشهرة ويبيع محله في خضم مشروعه المجنون. وقتها كانت فكرة ترك العمل بالطب تراودني من آن لآخر، لكني كنت أستبعدها وأؤكد لنفسي أن الأمل موجود و«بكره أحلى من النهاردة»، حتى وإن كان كل من هجروا الطب ممن أعرفهم أصبحوا من نجوم المجتمع أو من رجال الأعمال.

سامح موسى أصبح يقدم برنامجا تلفزيونيّا شهيرا ينتظره الناس بعد أن قضى سنوات يرش ماء أمام عيادته وينتظر المرضى بالساعات، لم يكن أحد يأتي، فاضطر إلى الاستغناء عن ممرضته

وأصبح يجلس أمام العيادة يكلم نفسه، عندما كان يمل كان يقوم من مكانه ويخلع البالطو الأبيض ليرقص ويغني، اندهش عندما لاحظ أن كل سكان العمارات المقابلة أصبحوا ينتظرون موعد فقرته ليفتحوا الشبابيك لمشاهدته وهم يشربون الشاي أو يقزقزون اللب، بدأ يطور من فقراته لدرجة أنهم من إعجابهم به بدءوا يلقون له في نهاية الفقرة ما تجود به أنفسهم: جنيه، اتنين جنيه، تلاتة جنيه. ولأن سامح حصل على الدكتوراه من أوروبا فلم يكن يمانع في جمع النقود في قبعته في نهاية اليوم، وبدأت العيادة تمثل مصدر رزق فعليًّا له، إلى أن شاهده مخرج تلفزيوني تبناه وقدمه في برنامج فكاهي أصبح من أشهر البرامج، وأصبح اسم سامح موسى على كل لسان.

الثاني هو عادل حسنين، الذي ترك الطب وحصل على سلسلة من دورات الكمبيوتر وأصبح مبرمجا في شركة أجنبية يحصل منها على مبلغ رفض أن يقوله لي، ليس خوفا من الحسد على حد قوله لكن خوفا عليَّ أنا من أن أصاب بجلطة في المخ!

الثالث هو عبده شعبان، افتتح بثمن العيادة التي أسسها له أبوه مصنعًا لورق تواليت، بعد أن جاءته الفكرة في أثناء عمله في المناظير الشرجية، عندما لاحظ أن ورق التواليت المتاح ليس بالكفاءة المطلوبة لذلك يترك آثارا مزمنة عند الناس، اخترع بكر مناديل شعبان التي أضاف إليها خلطة سرية مكونة من الكحول للتنظيف وزيت الزيتون للتطرية وخلاصة الفل من

أجل إزالة الروائح، وحصل عنها على جائزة الدولة التقديرية في العلوم!

الرابع هو أكرم حمدان، ترك الكلية في البكالوريوس بعد أن فاز بمسابقة في الإذاعة وأصبح مذيعا في الراديو، يقدم برنامجًا يوميًّا بعنوان اختار له اسم «جت سليمة».

الخامس عزيز المنياوي، جراح الجهاز الهضمي، وصاحب مصنع المنياوي للبلاستيك، قام بتطوير أبحاثه في مجال الطب والتي كانت مُنصبَّة على تصنيع أنابيب بلاستيكية مرنة تحل مكان الأجزاء المبتورة في حالات سرطان الأمعاء، خطرت له فكرة عبقرية بأن يطور من اختراعه ليصنع أشهر الاختراعات «الطبية» في العصر الحديث، والمعروفة باسم «اللي الطبي» والذي تم تعميمه في جميع القهاوي المصرية!

قصص النجاح داخل المجال فهي أقل في العدد وليست بنفس قدر النجاح، لكن أخص بالذكر مجالًا بعينه اتجه إليه معظم من لم يجدوا فرصة في ممارسة الطب في مصر، مثل صديقي وائل عسلية، والذي كنت أنا السبب الرئيس في نجاحه رغم أنني لم أعرف ذلك إلا بعد أن التقينا صدفة في ميدان التحرير، كان وائل عسلية قد حاول الانتحار بعد أن تخرج في الكلية بتقدير مقبول؛ مما يعني أنه لن يستطيع التخصص وسيُحرم من الماچستير والدكتوراه، ذهبت لزيارته في المستشفى، ومن باب التعاطف قلت له:

ـ إنت غلطان يا وائل، عاوز تموت كافر؟

بكى في حرقة وهو يقول:

ـ أنا فاشل يا عشمان، أنا مستقبلي ضاع.

أجبته في تشجيع:

ـ ما تقولش على نفسك كده يا وائل، أنت جميل، قوم بُص لنفسك في المراية هتلاقي الميزة اللي ربنا إداها لك وإنت مش واخد بالك منها وهتعرف طريقك.

ـ صحيح يا عشمان؟

ـ صحيح ياوائل.

قفز وائل من السرير ووقف ينظر إلى نفسه في المرآة طويلا، ثم قال في حيرة:

ـ مش لاقيها يا عشمان.

أجبت مؤكدا:

ـ ركز هتلاقيها.

نظر إلى نفسه مرة أخرى، ثم قال في حيرة:

ـ طيب دوَّر معايا يا عشمان.

هززت رأسي نافيا:

ـ لأ ياوائل، لازم إنت اللي تلاقيها.

تركته بعد أن رأيته وهو يُخرج لسانه ويشد أذنيه وينفخ خدوده بحثا عن الميزة، كنت أعرف أنه سيظل يبحث عنها خمسين عاما دون أن يجدها، لكن على الأقل كان هذا سيشغله عن الانتحار، اندهشت عندما رأيته يركب سيارة «BMW» ويدخن سيجارا. أخبرني بأنني بعد أن مشيت اكتشف ميزته الأساسية، وهي أنه رفيع مثل السيجارة؛ لذلك قرر أن يتجه إلى التخسيس. اشترى ميزان قباني (اللي بيوزنوا عليه اللامؤاخذة) وجهاز كمبيوتر وطابعة، كل ما يفعله هو أنه يزن الحريم ويعطيهن أي ورقة من التي طبعها من الإنترنت، واللعبة الكبيرة أن يقول لهن في كل مرة إن الزبونة خست، ويغير الورقة عشوائيًّا. المهم أن وائل عسلية الآن هو أشهر طبيب تخسيس في مصر، والفضل يرجع لي!

من تجارب النجاح أيضا تجربة الدكتور علي علوان؛ طبيب نادي «النجمة السوداء»، وهو تخصَّص في جراحة العظام، وفتح عيادة في كفر أبو طشت، وكاد يموت من الجوع لولا البيض والعيش البتَّاو الذي كان يأخذه من المرضى، جاءته الفرصة عندما أصبح خاله رئيس نادي «النجمة السوداء» فعينه طبيبا للفريق، رفض في البداية لأنه كان يعرف أنه سيتسبب في مصيبة، إلا أن خاله شجعه قائلا إن الأمر بسيط، كل ما عليه أن يقول إن كل الحالات صعبة ويجب أن تسافر إلى ألمانيا، ويسافر هو معهم (وآهي فُسحة برضه)، وأصبح علي علوان على شاشات

التلفزيون كل يوم، ولم يدخل مستشفى في السنوات العشر الماضية، ورغم أن فضيحته كانت بجلاجل عندما سقط لاعب من الفريق على الأرض فوقف يلطم على وجهه وهو يقول:

ـ دكتور يا جماعة، شوفوا لنا دكتور.

فأصيب باقي لاعبي الفريق بحالة إغماء جماعي من الصدمة، وسقطوا جميعا على الأرض، وهو يلطم ويصرخ:

ـ دكتور يا إخوانا، حد من المتفرجين دكتور؟

والمشكلة أن هذا حدث على شاشات التلفزيون الذي كان ينقل عدساته بين الدكتور علي وبين اللاعبين الذين أصيبوا بتشنجات عنيفة، إلى أن جاءت الإسعاف وأخذتهم جميعا. ظن البعض أن هذه هي نهاية مستقبل علي عليوة في النادي، إلا أن خاله المعلم الحدق خرج في برنامج حواري وهو يؤكد أن اللاعبين جميعا كانوا ملبوسين، وأن الدكتور علي لم يكن يلطم لكنه كان يفعل ذلك لإخراج العفاريت منهم، وأنه كان يسأل عن دكتور آخر لأن الأسياد طلبوا منه طبيبا اسمه يبدأ بحرف الميم أو النون وليس العين.. وتم تكريم الدكتور علي لحُسن تصرفه!

نهايته

من جد وجد ومن زرع حصد ولكل مجتهد نصيب، والجريمة تفيد أحيانا على ما يبدو!

نفس الرجل الذي أقنعني يوما بدخول الطب هو الذي أقنعني باعتزاله. أبي الدكتور مشتاق الطيب؛ أشهر معالج في مصر حاليّا بخلاصة الأعشاب وأجنحة النحل وبول الجمال وبراز البقر. خلية النحل وأحواض الزرع فوق السطوح، والجمل والبقرة مربوطان أمام باب العمارة لزوم الدعاية، ألبسهما أبي أيضا غطاء أبيض نظيفا يتم تغييره يوميّا ويضع على رءوسهم وأقدامهم أكياسا بلاستيكية، ويغطي والأنف والفم بكمامة لأنها حيوانات طبية ويجب ان تكون معقمة.

الطوابير أمام عيادات أبي لاتنتهي، سمعته تخطت حدود المدينة إلى البلد ثم إلى الوطن العربي، طلب مني صراحة أن أتوقف عن تضييع وقتي في «لعب العيال» وأن آتي لأعمل معه في العيادات التي افتتحها على التوالي!

وظيفتي محصورة في تعليق شهادة الطب على الحائط وترخيص المكان باسمي مقابل مبلغ محترم.. أما الكشف والتشخيص والعلاج فهي مسئولياته هو، هل اندهشت؟ ولا يهمك أنا أيضا اندهشت لفترة إلى أن أدركت حقيقة الوضع وواجهت نفسي بما قلناه من البداية.. أن العلم بالتأكيد لا يكيل بأي شيء!

خطة أبي بدأت عندما اكتشف فجأة أن الدكتور منير النِّور الذي كان يتابع برامجه في التلفزيون بانتظام لم يكن طبيبا أبدا، بل كان في الأصل كهربائيّا لكن الدنيا (لطشت معاه) فقرر أن يتجه إلى طب المخ والأعصاب. جمع الخميرة وافتتح عيادة في واحد من الأحياء الشعبية الشهيرة، في البداية لم تسر الأمور معه كما ينبغي إلى أن عرض عليه واحد من أولاد الحلال أن يشتري ساعة في التلفزيون يتكلم فيها عن الطب مع مذيعة «زي القمر»، تكرر كل خمس دقائق للمشاهدين أن الحوار مع خبير المخ والأعصاب العالمي منير النِّور. ولأن الكثيرين من أهل هيرو يعبدون التلفزيون عبادة الأصنام في الجاهلية فقد آمن به الجميع، وأصبحت حلقات منير النِّور تنافس حلقات سيد أبو حفيظة وأبله فاهيتا في نسبة المشاهدة، وأحب الناس تشبيهاته الشعبية البسيطة الجميلة؛ فأطلق على المخ علبة المفاتيح وعلى الأعصاب الأسلاك، وطلب من المشاهدين أن يحترسوا من شرب المياه لأنها قد تؤدي إلى قفلة، والتي يطلق عليها الأطباء السذج جلطة!

كانت الأمور تسير معه على ما يرام، وأبي نفسه كان يناديني لأشاهده وأتعلم منه كيف يتحدث «الدكاترة الكبار»، لكن منير النِّور على ما يبدو أصابه الغرور أو الحقد، بعد أن شاهد برنامجا آخر للدكتورة جريئة بهيج، وعرف أن برنامجها (أجسام وأوضاع) يتفوق في نسب المشاهدة بمراحل على برنامجه؛ فقرَّر تغيير اسمه إلى (السلك العريان)، ثم بدأ في تقديم سلسلة من الحلقات تحت عنوان واحد (الفيشة والكبس)!

بالفعل بدأ برنامجه ينتشر ويكتسح في نسب المشاهدة، لكن الدكتورة جريئة بهيج قامت بعمل بلاغ ضده اتهمته فيه بكهربة الشباب؛ وتم تحويله للنيابة فاتضح أنه لا يحمل أي شهادات في الطب؛ وبالتالي قبض عليه وأغلقت عيادته التي أصبحت من أشهر العيادات في مصر.

قرأ أبي تفاصيل الخبر في الجرائد فلمعت عيناه، وقرر أن يبيع محل العطارة ومركز الدروس الخصوصية الذي كان يملكه رغم اعتراضات أمي، واشترى عدة ساعات أسبوعية في قناة شهيرة بمبلغ عشرين ألف جنيه للحلقة، أطلق على برنامجه اسم (بركات الدكتور مشتاق)، وعرفته المذيعة للجمهور بأنه خبير العلاج بكل حاجة، وبعد أول حلقة وجد الدكتور مشتاق طوابيرَ تقف أمام عيادته التي افتتحها في منزلنا.

أصبح أبي فجأة مؤسسة طبية متكاملة؛ عيادة وحجوزات وكشوفات، استغل خبرته في الأعشاب وقدم لسوق الدواء

عبوات صغيرة من أي شيء وكل شيء، رأيته وهو يعبي الأكياس من نفس خلطة النباتات ويغير فقط على التكت الملون الغرض من الاستخدام؛ أعشاب مشتاق للضغط والسكر والقدرة الجنسية وعلاج الجرب والبواسير.

وعندما لم يعد لديه وقت لينتج المزيد بنفسه، أصبح يبيع كريم الشعر في عبوات خاصة على أنه كريم للتسلخات ومرهم الحروق على أنه علاج للصلع، وحشائش الحدائق على أنها نباتات علاجية، ولكي يتأكد من أنه لن يلاقي مصير منير النِّور جعلني أرخِّص العيادات باسمي. اعترضت طبعا لكنه وضع أمامي رزمة من النقود وهو يقول مبتسما:

ـ يا بني الطب موهبة.. وانت مش موهوب.

أصبحت أنا أذهب للعيادة كل يوم (لزوم الكبسات). أشاهد قنوات التلفزيون التي تعرض عشرات البرامج مدفوعة الأجر والتي غالبا ما تؤدي إلى وقوع العشرات ضحايا لخريطة النصب البرامجي. يشاهد انفعالاتي واتهاماتي لهم بالنصب فيطفيء الجهاز وهو يبتسم ويغمز قائلا:

ـ يا بني سيب الناس تسترزق، إذا كانوا بيفهموا يبقى هيعالجوا الناس، ولو ما بيفهموش يبقى القانون لا يحمي المغفلين!

فيضحك بصوت عالٍ وأنا أعرف أنه يعني الدكاترة ـ أمثالي ـ

الذين قضوا نصف عمرهم في الدراسة ثم عجزوا عن مواجهة الذين فدرسوا الطب من منازلهم.

إلا أن بعض كرامتي الطبية ردت لي أمام أبي عندما بدأ بعض زملاء الدراسة يعرفون الطريق ويشترون برامجَ وبدأت منافسة بين أبي وفريقه وأمثاله ومنتخب دكاترة التلفزيون المكون من حبايبي: أبو خطوة المبروك وعلي علوان ووائل عسلية ومني أم فستان منفوش وآخرين. أي نعم، غالبا الألقاب والوصف والتخصص غير دقيقة وترقى إلى مستوى النصب أيضا، لكن (نص العمى ولا العمى كله. أهم دكاترة برضه). ومع المتابعة الجيدة عرفت أن برامج الطب التلفزيونية في هيرو تباع لمن يستطيع الدفع، وكل قناة لها ثمن، وموعد إذاعة البرنامج له ثمن آخر، واللقب الذي يقدمونك به له ثمن، وأن كلمة الخبير الطبي في هذه البرامج تساوي تقريبا كلمة الخبير الإستراتيجي في أغلب البرامج السياسية؛ أي مالوش فيها!

أما أنا فقررت اعتزال الطب والاكتفاء بالمقابل المادي المحترم الذي آخذه منه كل شهر مقابل شهادتي المعلقة على حوائط عيادته، ضميري نصف مرتاح بعد أن رفضت التقدم لاختبارات الوجوه الجديدة في البرامج الطبية، ورفضت أيضا مشاركة أبي في الكشف على مرضاه وتوزيع الزجاجات وأكياس الأعشاب عليهم ومساعدته في العمليات الجراحية المباركة التي يجريها بدون تخدير ولا فتح ولا أدوات، والتي

أصبحت من الصيحات الشهيرة في العلاج والتي يقبل عليها الجميع.

ورفضت أيضا أن أتبول في الزجاجات الصغيرة التي فرض على الجميع استخدامها في المنزل، بحجة أنه يقوم بعمل تحليل يومي لنا جميعا بعد أن أصيب الجمل الذي اشتراه في بداية مشروعه بجفاف شديد واحتباس مزمن في البول بسبب جهاز الشفط الذي استخدمه أبي بعد أن زاد عليه الطلب. لكن الدكتور مشتاق رفض بيعه أو ذبحه لأنه يحتاجه من آن لآخر (لزوم التصوير)!

انتقلت طموحات أبي الآن إلى عضوية مجلس الشعب القادم على خلفية وخطى الرائد «حلنجي» والذي لم يزل أبي يراجع حلقاته على اليوتيوب ويعتبره الأب الروحي لمجالات الطب التلفزيوني في مصر، ويطلب مني متابعة حلقات الطفل المعجزة الذي يعرض له التلفزيون برنامجا آخر على أنه أعظم جراحي القلب والصدر والذي احترف في التخصص رغم رسوبه ثلاث مرات في الثانوية العامة، لكن الموهبة تكفلت بالأمر.

شاهدت له حلقة واحدة فقط ثم قررت أن أكتفي بما حدث لي في عالم الأطباء وأن أتجه إلى تدريس الأحياء مجانا في المراكز التي كان يعمل فيها أبي، كل الطلبة يحبونني إلا أنهم لا يعرفون سبب الحالة العصبية المخيفة التي تنتابني عندما يناديني أي منهم بلقب «دكتور»، يسبب هذا الأمر إشاعات كثيرة أشهرها على الإطلاق ما سمعته بأذني في حوار هامس بين طالبتين:

ـ هو كان دكتور، بس ياعيني ما طلعش شاطر زي أبوه فاتعقد.. ماهو ابن الدكتور مشتاق الطيب..

ـ ده ابن الدكتور مشتاق؟ ياخسارة!

أما الدكتور مشتاق نفسه فقد شجعني على قرار الاعتزال وطالبني بالتمسك به وهو يرتدي البالطو الأبيض ويأخذ نَفَسا عميقا من البايب الذي يدخنه حاليّا وهو يقول بثقة:

ـ برافو يابني ربنا يوفقك، الاختيار الغلط مش عيب، العيب إنك تكمل في الغلط.

الذين لبسوا البالطو الأبيض

هذا الكتاب «بالتأكيد» من محض الخيال، وأي كائن بشري يعيش في أي مكان على وجه الأرض لا يمكن أن يصدق أن المكتوب هنا يمكن أن يحدث لبشر، فما بالك بما يحدث من وفي الأطباء؟ عارف يعني إيه أطباء؟

بالبلدي كده يعني دكاترة، يعني كليات القمة، يعني حلم بابا وماما، يعني اللي ما دخلش طب وهندسة ف مصر ما دخلش جامعة، يعني ملايكة الرحمة، يعني الباشا والبالطو والعيادة والمستشفى، يعني دُقي يا مزيكا «حزايني» وسمِّعني أُغنية الصِّيت ولا الغِنى!

حسن كمال؛ تخرج في كلية الطب- جامعة القاهرة عام ١٩٩٩، ثم حصل منها على الماجستير والدكتوراه في أمراض الروماتيزم والتأهيل.. يعمل طبيبًا في المركز القومي للبحوث.. أصدر ثلاث مجموعات قصصية: «كشري مصر»، «لدغات عقارب الساعة»، «وكان فرعون طبيبًا».. حصل على جائزة ساقية الصاوي في القصة ثلاث مرات متتالية، ثم على جائزة ساويرس في الأدب عن مجموعته الأولى «كشري مصر». وقد لاقت روايته الأولى «المرحوم»، التي صدرت عام ٢٠١٣، نجاحًا جماهيريًّا مميزًا فور صدورها، وكذلك رواية «الأسياد» التي صدرت له عام ٢٠١٥، ولاقت إقبالًا كبيرًا من القراء.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

9 789770 933749
دار الشروق
www.shorouk.com